زكريا تامر

الحصرم

قصص



رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES
BOOKS

زكريا تامر

الحصرم

قصص



رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES
BOOKS

SOUR GRAPES

BY

ZAKARYA TAMER

First Published in February 2000

BEIRUT- LEBANON

British Library Cataloguing in Publication Data available

ISBN 185513 461 6

الغلاف: تصميم محمد حمادة

الطبعة الأولى: شباط/ فبراير ٢٠٠٠

المحتويات

﴿قال يا بنيّ لا تقصص رؤياك على إخوتك﴾

القرآن الكريم (سورة يوسف)

١

المهارشة

اشتهرت حارة قويق بين الحارات الأخرى بأغنيائها الذين يقتلون أمهاتهم إذا كان القتل سيكفل لهم الحصول على مزيد من المال، واشتهرت بأطفالها المشاكسين الذين يجلسون في المقاهي ويدخنون النراجيل، ويغزون الحارات الأخرى ولا يتركون زجاج شباك يفلت من رجم حجارتهم، ولا يجرؤ بائع خضروات جوال على دخول حارتهم لأنه سيخرج منها حاملاً بقايا خضرواته على ظهره لا على ظهر حماره، ولو كانوا يحفظون دروسهم المدرسية مثلما يحفظون الشتائم المقذعة لكانوا أنجب التلاميذ في العالم بأسره.

واشتهرت حارة قويق برجالها الغلاظ المرحبين بالمشاجرات الدامية ودخول السجون أمثال خضر علون الذي قطع أذنه اليسرى في المحكمة أمام القاضي وأكلها متلذذاً وجاسم القزاز الذي يسرق الكحل من العين ومحمود الجسر الذي يملك خنجراً يئن متعباً من كثرة الأجسام التي طعنها.

واشتهرت حارة قويق أيضاً بنسائها الجريئات الوقحات الشرسات

السليطات اللواتي لاذ حياؤهن بالفرار منهن منذ سنين طوال ولم يعد إليهن ثانية. ولكن أم علي كانت أكثرهن شهرة على الرغم من أنها طاعنة في السن ومجرد أرملة فقيرة، مات زوجها تاركاً لها ابنة كبرت وصارت أجمل صبية في الحارة، يشتهيها كل أعزب ولا يجرؤ على الزواج بها حتى لا تصبح حماته أم علي التي لو كانت رجلاً لما خرجت يوماً من السجون.

وفي ظهر يوم، كانت أم علي تمشي في سوق حارة قويق عابسة الوجه، مرفوعة الرأس، وخطاها واسعة سريعة لا تتناسب مع عمرها، فخرج أبو سليم الحلاق من دكانه، ولحق بها مهرولاً وهو يناديها بصوت لاهث: «أختي أم علي».

فتوقفت أم علي عن المشي فجأة حين بلغها صوته، واستدارت إليه كأن عقرباً لسعها، وقالت له بصوت غاضب: «ألا تستحي من التكلم مع امرأة لا تعرفها؟ من قال إني أختك وأنت أخي؟ واحدة مثلي لا يشرفها أن يكون لها أخ مثلك حلاق».

فقال أبو سليم: «لا حول ولا قوة إلاّ باللّه! اسمحي لي بكلمة صغيرة».

فقاطعته بصوت ساخر: «لا تتعب نفسك واطمئن.. لن أحلق إلاّ في دكانك حين ينمو شعر ذقني».

قال أبو سليم: «اليوم صباحاً ذهبت إلى منزل نجيب بيك البقار، وحلقت ذقنه».

قالت أم علي وقد تجعد وجهها اشمئزازاً: «هنيئاً لك بهذا الشرف الرفيع».

قال أبو سليم: «كلّمني البيك ورجاني إبلاغك رغبته في رؤيتك لأمر ضروري».

قالت أم علي: «البقار البقار؟ أليس هو ذاك الذي يسكر ليل نهار؟».

قال أبو سليم بصوت يحاول كظم غيظه: «لسنا أمه، وله رب يحاسبه في الآخرة».

قالت أم علي: «وماذا يريد مني جناب البيك؟».

قال أبو سليم: «واللّه لا أعرف. أنا أنقل إليك ما قاله بالضبط، وما على الرسول إلاّ البلاغ».

وهرول أبو سليم عائداً إلى دكانه، وعادت أم علي إلى مشيتها السريعة تتساءل عما يريد منها نجيب البقار أغنى رجل في حارتها، ولما مرت بالقرب من باب بيته الفخم ازداد فضولها، ووجدت نفسها تدق الباب، وتخبر خادمة فتحت الباب لها أن البيك طلبها، فأدخلتها الخادمة غرفة الضيوف، وذهبت متعجلة، ولم تمضِ دقائق حتى دخل نجيب البقار غرفة الضيوف مرحباً بأم عليٍ كأنها صديقته منذ أيام الطفولة وكانا يلعبان معاً، ورجاها أن تجلس، وجلس قبالتها، وسألها باهتمام عن صحتها وصحة ابنتها، فقالت له أم علي بنزق: «اسمع. لا وقت لديَّ لطق الحنك الفاضي. قل ما عندك باختصار وبلا لف ودوران».

قال نجيب البقار ببطء كأنه يزن كلماته كلمة كلمة: «أعرف أنك امرأة فقيرة محتاجة».

قالت أم علي: «لم آتِ إلى بيتك لأشحذ».

فقاطعها نجيب البقار قائلاً بصوت مستنكر: «أعوذ بالله وحاشاك».

قالت أم علي بصوت نافد الصبر: «ماذا تريد مني؟».

قال نجيب البقار: «أتعرفين خضر علون؟»

قالت أم علي: «من لا يعرفه؟ أعرفه وأعرف أن كل أهل الحارة

يخافون شره ويتجنبونه، ولكني لا أخافه ولا أحبه ولا أطيق هيئته الغلط».

فبدا السرور على وجه نجيب البقار، وقال لأم علي بصوت فرح: «نحن إذن متفقان، وأنا مثلك لا أطيق التراب الذي يمشي عليه هذا الطبل المتكبر، وأشتهي أن أراه مرة واحدة قبل موتي واقفاً في الحارة مذلولاً مهاناً، ولا أحد غيرك في الحارة يصلح لهذه المهمة، وسأعطيك كل ما تطلبينه».

وأخرج يده من جيبه ممسكة برزمة من النقود الورقية، وقدمها لأم علي التي قالت له: «لا لا.. أنا مستعدة لبهدلة خضر علون مجاناً».

فضحك نجيب البقار، وقال لأم علي: «أعجبني جوابك، وسيزيد المكافأة».

وأضاف إلى رزمة النقود الورقية رزمة أخرى، وقدمها لأم علي قائلاً: «ثقي بأنّك ستخدميني خدمة لن أنساها طول حياتي».

فدست أم علي النقود الورقية في حقيبة يدها، وسألها نجيب البقار: «أتشربين شاياً أم قهوة؟».

فأجابت أم علي: «لا وقت لديَّ للسفاسف».

وحدث ما كان مخططاً له، وتواجهت أم علي مع خضر علون في سوق الحارة المكتظة بالناس، فتحرشت به مستهزئة، فقال لها باستعلاء واحتقار: «امشي في طريقك يا امرأة».

ففتحت أم علي حالاً أبواب جهنم، وقذفته بحممها وسمومها، فوقف قبالتها غاضباً حائراً عاجزاً عن الإقدام على أي فعل، فلا يليق برجل مثله أن يضرب امرأة، فابتلع الإهانات له ولعائلته ولماضيه وحاضره ومستقبله وهو ساكت، أزرق الوجه، مطأطىء

الرأس، ولم يفه بكلمة واحدة، فتوقع أهل الحارة أن يحرق مجهول ذات ليلة بيت أم علي، ولكن بيتها ظل سليماً، وتوقعوا أن تُختطف ابنتها الصبية الجميلة وتغتصب وتعاد إليها بعد أيام مجللة بالعار، ولكن الابنة ظلت كعادتها تتسكع في الحارة برشاقة غزال، وتوقعوا أن تتعرض أم علي لحادث غامض يسفر عن هلاكها، ولكن أم علي لا تزال بكامل صحتها يرتفع صوتها عالياً في أرجاء الحارة مردداً المنتقى من سبابها الحانق.

وكانت أم علي تحرص على كتمان حسرة طاغية لكونها لم ترزق ابناً، وأحبت سليمان ابن أختها الذي كان شاباً وديعاً في مقتبل العمر، وتحس أنها لو كان لها ابن لأحبته أقل مما تحب سليمان، ولا تقبل أن يمر يوم من دون أن ترى سليمان الذي اعتاد أن يزورها كل مساء ملبياً دعواتها الملحاحة، وأتى في إحدى الأماسي كعادته، وسهر عندها ساعات، وودعته في آخر السهرة، ووقفت وراء الشباك العلوي المطل على الحارة تتابعه بنظرات حانية، فرأت في الظلام شبح رجل يشبه خضر علون ينقض على سليمان بخنجره منهالاً عليه بالطعنات المتلاحقة بينما كان سليمان يصيح إثر كل طعنة بصوت باكٍ متوسل: «دخيلك يا عمي دخيلك».

فلم يبالِ الخنجر بالدم المتناثر ولا بصوته المستجدي، واستمر في الطعن بقسوة تتزايد، ولهثت أم علي كأن رئتيها تطلبان هواء غير موجود، وعرفت أول مرة في حياتها ثلج الرعب، وأرادت أن تبكي وتصيح وتولول، فاختنق صوتها وتلاشى، وانهارت على الأرض كأنها كأس زجاجية وارتطمت بأرض صلبة وتحطمت وتناثرت قطعاً صغيرة. ومُنعت في المستشفى من رؤية جثة سليمان، وقيل لها إن جسمه المطعون بالخنجر كان كغربال كثير الثقوب، وادّعى

خضر علون لرجال الشرطة أنه كان في وقت حدوث الجريمة يسهر مع أكثر من عشرين رجلاً، وكلهم شهد بأنه كان جالساً معهم ولم يفارقهم لحظة واحدة، وأقام نجيب البقار حفلة عشاء دُعيَ إليها أكثر من خمسين رجلاً احتفالاً بنجاة خضر علون من اتهام ظالم كان سيودي به إلى حبل المشنقة أو البقاء في السجن مدى الحياة، ومشت أم علي في جنازة سليمان مرتدية الثياب السود المصممة على ألا تخلعها، وشهدت حفار القبور يحمل جثة سليمان الملفوفة بكفنها ويغيبها في حفرة القبر المظلمة، وعجزت عن ذرف دمعة واحدة، وأمست كتلة لحم مترهلة لا تتوقف عن الأنين المتحشرج، تمشي في حارة قويق زائغة النظرات، مترنحة، ظهرها محني، ورأسها يتأرجح بين كتفيها غير مبال بالأعين الشامتة، تزور كل يوم المقبرة، وتجلس الساعات الطوال بين القبور منصتة بدهشة واستغراب لأصوات خفية تسمعها وحدها وتزيد أنينها.

وما حدث لأم علي خلّص حارتها من الخوف منها، وتكاثر عدد الطامعين في الزواج بابنتها.

٢

مصرع خنجر

تضايق خضر علون من حكي أمه المعجب بالعمليات التجميلية وتطورها الجديد، وسألها بصوت متهكم: «وهل تريدين أن تعودي صبية في العشرين؟».

فقالت له أمه: «هذه العمليات لا تفيد أمثالي، ولكنها تفيد أمثالك، فأنت تستطيع الآن الحصول على أذن جديدة بدلاً من أذنك التي قطعتها بتهورك وجنونك».

فنظر خضر بغيظ إلى أمه التي تابعت الكلام قائلة: «عمرك الآن أكثر من أربعين سنة، ولم تتزوج بعد، وغيرك تزوج مرة ومرتين وثلاث مرات، ومن سيتزوجك إذا ظللت بأذن واحدة؟ كل رجل في حارتنا له أذنان إلاّ أنت بأذن واحدة».

فقال خضر بزهو واعتداد: «ومن قال لك إني أخجل من أذني المقطوعة ولا أتفاخر بها؟».

قالت الأم: «ألا تعلم أن نساء الحارة نسين اسمك ويقلن عنك: أبو أذن مقطوعة؟».

قال خضر: «أنا رجل، ولا أبالي بكلام نساء قاصرات بنصف عقل».

وقال له عنترة بن شداد الذي يرافقه خفية ليل نهار: «لا تبالِ بكلام أمك الخرف، فأعدائي كانوا يعيروني بلوني الأسود، ولكنني ظللت الرجل الذي تحبه عبلة ويهابه الجميع ويطلبون رضاه».

وقالت الأم لخضر بلهجة الناصحة: «اللّه يرضى عليك يا خضر. أنت لا تعرف الأم وقلب الأم. الأم لو كان ابنها قرداً لرأته أجمل غزال، وأنا لا أريد لك إلاّ الخير، وأراك أحلى رجل في الدنيا، ولكن أنظر إلى المرآة لتعلم أني لا أغشك. منظرك يخوف، تهمل نفسك كأنك يتيم، وتحلق شعر رأسك كله كأنك أصلع، وتكبّر شاربيك، ولا تهتم بثيابك، وأذنك مقطوعة».

فقال له عنترة بن شداد: «إذا تركت أمك تحكي، فستقترح عليك أن تحلق شعرك عند حلاق للسيدات».

ونظر خضر إلى أمه، وأشفق عليها، فهي في الستين من عمرها، متجعدة الوجه كأن عمرها تسعون سنة، قليلة الضحك، وقد تنهدت، وقالت له: «فرّحني يا خضر قبل موتي. صرت عجوزاً على حافة قبري، فمتى أصبح جدة وأرى أولادك؟».

فقال لها خضر: «ما شاء اللّه! عندك جيش أحفاد. أختي متزوجة، ولديها خمسة عفاريت».

قالت الأم: «ولكنهم أولاد الغريب، وليسوا أولادك».

وقال له عنترة بن شداد: «الموضة اليوم رجال يقلدون النساء ونساء يقلدن الرجال، وبات عدد الرجال الرجال ضئيلاً، ويساء فهم سلوكهم».

ودهشت الأم عندما رأت ابنها يضحك بصدق مع أنه كان قبل لحظات عابس الوجه يكاد ينفجر غيظاً، وقالت له بصوت نافد الصبر: «اللّه يعينك على عقلك الأعوج».

وترك خضر علون البيت بعد أن باس يدي أمه، وذهب إلى مقهى حارة قويق، وجلس وحده يدخن النرجيلة، فقال له عنترة بن شداد: «لا تبتسم، فالرجال حين يكثرون من الابتسام يصبحون كالنساء المتغنجات».

فازداد وجه خضر علون عبوساً، فظن الرجال الجالسون إلى طاولات قريبة منه أن شجاراً عاصفاً موشك على الوقوع، وحاولوا الابتعاد، ولكن دورية شرطة تتألف من رجلين دخلت المقهى في تلك اللحظة، وصاح أحد الشرطيين بصوت خشن مطالباً رواد المقهى بالوقوف ورفع الأيدي إلى أعلى، وبدأ الشرطيان بتفتيش الجميع الواحد تلو الآخر، وضبطوا مع خضر علون خنجراً محدودب النصل، فاستله أحد الشرطيين من غمده، وسأل خضر علون بلهجة مستنكرة: «ألا تعلم أن حمل السلاح ممنوع؟».

فتمتم خضر بكلمات مبهمة غير مفهومة، فلكزه الشرطي الآخر، وقال له: «لا تخنخن. الأفندي سألك سؤالاً، فجاوب عنه. لماذا تحمل الخنجر؟».

فقال خضر: «لأني أحب الفواكه».

قال الشرطي: «عذر أقبح من ذنب».

قال خضر: «الدكتور أوصاني ألا آكل الفواكه إلاّ بعد تقشيرها».

فضحك الشرطيان، ولم يعتقلا خضر علون، واكتفيا بمصادرة الخنجر، ونصحاه بأكل الفواكه بقشورها حتى لا يتعرض مستقبلاً للمتاعب، فجلس خضر على كرسيه مبهوتاً خجلاً كأنه عار، وقال

له عنترة بن شداد: «من يتخل عن خنجره ليس برجل ولا يحق له الجلوس إلاّ بين النساء».

قال خضر: «ولكن من سطا على خنجري هو شرطي».

فقال له عنترة بن شداد: «كأنك نسيت أنّ رجال الشرطة بشر مثلي ومثلك يموتون مثلما نموت».

فقال خضر لعنترة: «أنا بغير خنجر أقلّ قوة من امرأة عجوز كسيحة».

قال عنترة: «وكيف سيعود إليك خنجرك؟».

ففكر خضر واجماً، ثم نهض عن كرسيه فجأة، وغادر المقهى شبه راكض، وهرع إلى بيت أكثر رجال حارته نفوذاً ومالاً، والتقى نجيب البقار، وقال له بصوت متهدج: «اسمع يا نجيب بيك، كل أهل الحارة كباراً وصغاراً أتوا إليك بطلبات، وأنا الوحيد الذي لم يطلب منك أي طلب».

قال نجيب: «هذا صحيح، ولهذا أنا عاتب عليك حتى ظننت أنّك لا تحبني».

قال خضر: «اليوم جئتك أطلب طلباً، فلا تردني خائباً».

قال نجيب: «أطلب ما تشاء، وسيتحقق طلبك فوراً بإذن اللّه».

فحكى خضر بصوت مخنوق ما جرى له مع الشرطيين، ورجاه التوسط لإعادة خنجره إليه خصوصاً أن رئيس المخفر صديقه ولا يردّ له طلباً، ففكر نجيب قليلاً قبل أن يقول لخضر: «لماذا لا تشتري خنجراً آخر؟ أنا سأهديك أحسن خنجر يقطع الصخر».

فقال خضر بعناد: «هديتك على العين والرأس، ولكني لا أرضى إلاّ بخنجري، بيني وبينه صحبة عمر».

فقال نجيب: «اليوم مساء سأكلّم رئيس المخفر، وكل الأمور ستنتهي كما تحب».

وهرع خضر علون في صباح اليوم التالي إلى بيت نجيب البقار، فوجده لا يزال في ثياب النوم يتمطى ويتثاءب، وسأله بلهفة: «خير؟ طمئني يا بيك».

فأخبره نجيب بصوت آسف أنّ أحد الشرطيين أساء التصرف بالخنجر المصادر ولم يسلمه إلى المخفر وباعه لسائحة أجنبية لا يعرف اسمها أو عنوانها، وسيعاقب بقسوة، ونصحه بنسيان خنجره، فصاح خضر: «وكيف أنساه؟ أتعرف أن ذلك الخنجر لم يفارقني منذ أن كان عمري عشر سنين، وفي الليل أضعه تحت مخدتي وأنا نائم، وعندما أدخل السجن لا يضايقني إلاّ ابتعادي عنه؟».

فقال له نجيب: «كبّرها تكبر.. صغّرها تصغر. حتى أعز صديق يموت، فاعتبر خنجرك صديقاً مات».

فقال خضر بعتاب ولوم: «توقعت من كل الناس أن يقولوا مثل هذا الكلام، ولكني لم أتوقعه منك وأنت الخبير بطبائع الرجال».

وغادر خضر بيت نجيب البقار ساخطاً، ومشى في الحارة هائجاً، وخيّل إليه أن خنجره يناديه، وتذكر كيف كان يرتجف منتشياً كلما لمس نصله أو أمسك بمقبضه واثقاً بأنه لو ألقي في قعر بئر سحيقة لقفز منها إلى قمة جبل، وقال له عنترة بن شداد: «لو خيّرت بين عبلة وسيفي لما ترددت لحظة واحدة واخترت السيف، فالرجل بلا سلاح هو امرأة لن تفلت من الاغتصاب».

وأحس خضر علون أنه قد بات بغير حماية وفريسة عزلاء، وتاق إلى هواء مختلف عن الهواء الذي يتنفسه، فترك الحارة، ومشى

الهوينا في شارع عريض مغطى بالإسفلت ينتصب على جانبيه شجر أخضر وأبنية عالية من حجر أبيض، فإذا سيارة مسرعة تصدمه وتمر فوقه، فنقل إلى مستشفى قريب، ولكنه مات في فجر اليوم التالي، وعندما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة، قال له عنترة بن شداد: «لم تخسر شيئاً، فلا تأسف ومت غير مبال».

وسار كل رجال حارة قويق في جنازة خضر علون يتقدمهم عنترة ابن شداد منكس الرأس، وافتخر خضر علون بمشاركة عنترة في تشييعه، ولكنه أسف لأن أهل حارته لم يعلموا بها ولم يروا عنترة يهيل التراب بسيفه على صديقه الميت.

٣

مغني الليل

أوشك الليل أن ينتصف من دون أن يتوقف شفيق الكوا لحظة عن العزف على العود والغناء، الأغنية تلو الأغنية، أمام حشد من الرجال الذين أتوا إلى بيت مسعود الأصفر ملبين دعوته السخية إلى سهرة تنتهي عند أذان الفجر، وحافلة بالطرب وأطايب الطعام ومختلف أنواع الخمور والسجائر المحشوة بالتبغ والحشيش الأصلي، وقد أكلوا طعام عشائهم على مهل، واحتسوا كؤوس الخمور، ودخنوا السجائر، وتحادثوا معاً بأصوات مرتفعة عالية، وكان يتعالى بين الحين والحين وسط ضجيجهم صوت مسعود الأصفر مجدداً ترحيبه بهم راجياً منهم أن يأكلوا بلا خجل كأنهم في بيوتهم، ولم يكن شفيق الكوا راضياً عن تلك السهرة، ولكنه استمر في العزف على العود والغناء حتى تقطعت أوتار العود فجأة ولسبب غير معلوم، فتوقف عن الغناء، فشخصت إليه الأنظار مستغربة، وهرع إليه مسعود الأصفر قلقاً، فقال له شفيق الكوا مطمئناً: «قضاء وقدر! سأحاول الغناء بلا عود».

فقال مسعود معترضاً: «ولكننا اتفقنا قبل السهرة على أن تعزف

على العود وتغني، فإذا غنيت فقط، فلن تأخذ إلاّ نصف الأجرة».

فامتعض شفيق، ولكنه قال لمسعود مسايراً: «كل ما يهمني الآن هو أن يكون ضيوفك مسرورين».

فصاح أحد الرجال بصوت ثمل: «العمى! صوته مع العود كان لا يطاق ومن أنكر الأصوات، فماذا سيحلّ بنا يا شباب إذا واجهنا صوته وحده؟».

وصاح رجل آخر: «أنا سأغني أحسن منه ومجاناً».

وصاح رجل ثالث: «أنا أيضاً مستعد للغناء، وسأدفع لكل قبضاي يصبر على الاستماع لصوتي ما يأمرني به».

وصاح رجل رابع: «ما عرفتونا بالاسم الصحيح لحضرة المطرب.. شفيق الكوا أم شفيق العوا؟».

فتعالت الضحكات، وعمّ الضجيج، فأحس شفيق أن كرامته أهينت وستهان أكثر لو سكت، وقال لمسعود مشيراً إلى الرجال: «إذا لم يكفّ الإخوان عن التهكم عليَّ وعلى صوتي، فسأترك البيت آسفاً».

فقال له مسعود بصوت ساخط ساخر: «بلا آسفاً بلا قاسفاً! الطريق إلى باب البيت تعرفه أم أدلك عليه؟».

فحمل شفيق الكوا عوده، وغادر بيت مسعود الأصفر، ومشى في الأزقة المظلمة الموصلة إلى بيته وهو يشتم زماناً خسيساً نذلاً أرغم أمثاله على الغناء أمام مجموعة من السكارى المساطيل، وعندما وصل إلى بيته حاول أن يستبدل أوتار عوده، ولكنه لم يعثر على أية أوتار جديدة، ووقف أمام مرآة طويلة، وغنى بصوت خافت ما لبث أن ارتفع وحلّق، فجاءه رسول من الخليفة يأمره بالمثول حالاً بين

يدي جلالته للغناء له، فأبى شفيق قائلاً إنه أقسم ألا يغني إلاّ للشحاذين، فأتاه الخليفة بنفسه وبمفرده ومن غير حراس أو أعوان، وقعد على البساط الممدود على الأرض، ورجاه أن يغني له، فلم يتغير جواب شفيق: لا يغني إلاّ للشحاذين، فابتسم الخليفة، وقال لشفيق: «أين عيناك؟ ألا ترى أني الآن لست خليفة المسلمين بل أنا مجرد شحاذ يستجدي قلبه الوحيد القليلَ من المتع؟».

وتنهد الخليفة، وحكى لشفيق عما يشعر به كل ليلة من كآبة قاتلة وعذاب قاهر وسأم مبيد بعد أن هجرته المرأة التي لا يحب سواها، وعشقت عبداً من عبيدها، فأشفق شفيق على الخليفة، ووافق على الغناء له، فقال الخليفة: «كلي آذان صاغية».

وغنى شفيق، فطرب الخليفة أشد الطرب، واستزاده، فلم يبخل شفيق عليه، وغنى ساعات حتى صاح الخليفة بشفيق متضرعاً إليه أن يكفّ عن الغناء قليلاً قبل أن يتوقف قلبه عن الخفقان لفرط ما شعر به من سعادة وفرح ونشوة، ولم يعد يحتمل المزيد، فأطاعه شفيق، وأصغى مطولاً إلى مدائح الخليفة له، وناشده الخليفة أن يوافق على أن يصبح المغني الأول في مملكته، ولا يحقّ لأحد الغناء إلاّ بعد أن يمتحنه ويجيزه، فهمّ شفيق بالردّ، ولكنه سمع في تلك اللحظة قرعاً شديداً على باب البيت، فنظر إلى الخليفة نظرة متسائلة، فأذن الخليفة له بفتح الباب، فهرع إليه، وفتحه ليجد أمامه شرطياً عابس الوجه يخبره أن جيراناً له اتصلوا بمخفر الشرطة مشتكين ومدّعين أن في بيته رجلاً يُضرب بقسوة ووحشية ويصرخ مستنجداً متوجعاً، فدهش شفيق، وأنكر مزاعم الجيران بصوت حانق، وقال للشرطي: «بعد وفاة السيدة الوالدة لا أحد يعيش في هذا البيت سواي، وفي استطاعتك التأكد بنفسك. تفضل.. البيت بيتك».

فدخل الشرطي البيت، وفتش غرفه غرفةً غرفةً تفتيشاً دقيقاً متأنياً، ولم يعثر لا على مضروب ولا على ضارب، فازداد عبوس وجهه، وخرج من البيت راثياً لأحوال الناس المبتلين بجيران كذابين.

٤

يوم أشهب

تمرّن شكري المبيض مع زملائه في السجن تمارين رياضية لا تخلو من العنف، غايتها الحفاظ على سلامة صحته، فأدت إلى إصابة جسمه بالكثير من الرضوض والكدمات والجروح، ومارس شكري المبيض هوايته في شي الكستناء الفاكهة المفضلة لديه، فأحرقت النار أصابع يديه وقدميه وظهره وصدره وبطنه، وحاول شكري المبيض حلاقة ذقنه صباحاً بينما كان منهمكاً في الاستماع إلى ما يقدمه مذياعه من نشرات أخبار وأغان، فأخطأت يده اليمنى الممسكة بموسى الحلاقة، ولم تخلص جلد الوجه من شعر لا لزوم له، وذبحت بحركة طائشة العنق من الوريد إلى الوريد، فنُقل شكري المبيض تواً إلى أفضل مستشفى، وهناك حاول الأطباء إصلاحه، فعجزوا، ووضعت جثته في كيس من قماش متين، وسلمت إلى سيارة توزع الموتى يومياً على بيوت أهاليهم، ولم يواجه سائقها أية مشقة في الاهتداء إلى بيت أهل شكري المبيض في حارة قويق، ولكنه بوغت به خالياً منذ شهور، فأبوه مقبوض عليه بتهمة التشرد والتسول، وأخوه يحاكم لسطوه على أموال الدولة، وأمه مسجونة لاعتدائها الشفوي على

أعراض نساء محترمات، وأخته معتقلة لأنها تتعمد ألا تعبر عن فرحتها أو حزنها.

وسأل سائق السيارة الجيران عن أقرباء شكري المبيض، فأخبروه أن عمه هاجر إلى أميركا وخاله وأبناءه وبناته إلى كندا وابن خالته إلى أستراليا وخالته تعمل خادمة بدبي، فسأل السائق عن عناوين أصدقائه، ولكن كل الذين قيل عليهم إنهم من أصدقاء شكري المبيض أقسموا شاحبي الوجوه أنهم ليسوا بأصدقائه، ولم يتبادلوا معه كلمة واحدة، ولو رأوه اليوم مصادفة لما عرفوه، فخجل شكري المبيض من السائق، وانتهز فرصة انشغاله بشراء خضروات وفاكهة طلبتها زوجته، ولاذ بالفرار، واختبأ في بيت أهله منتظراً عودتهم ليدفنوه مطلقين الزغاريد ابتهاجاً بخروجه من السجن.

٥

رجال

أقسم عبد الحليم المرّ أنه سيطلق زوجته نبيلة إذا ما تجرأت على الخروج وحدها من البيت من غير إذنه، فحرصت نبيلة بعد قسمه على الخروج من البيت كل يوم، فغضب، وأقسم أنه سيطلّقها إذا ما تجرأت على المشي في الشوارع بغير ملاءة، فهجرت نبيلة ملاءتها السوداء، واستخدمتها ممسحة للبلاط، فغضب، وأقسم أنه سيطلّقها إذا ما علم أنها تكلّم رجلاً غيره. وعاد ظهر أحد الأيام إلى البيت عودة غير متوقعة، فوجدها في السرير تكلّم رجلاً لم يره من قبل، فغضب، وأقسم أنه سيطلّقها إذا ما اتضح أن ذلك الرجل الغريب هو السبب في انتفاخ بطنها، فضحكت نبيلة قائلة إن ما تطهوه من طعام دسم يسبب غازات تطيّر مناطيد، ولكنها بعد أشهر قليلة أنجبت بنتاً، فغضب عبدالحليم المرّ، وأقسم أنه سيطلق نبيلة إذا ما خطر لها ثانية أن تنجب بنتاً، ولكنه طلقها بعد أسابيع عندما ضبطها وقد نسيت أن تضع ملحاً في طعام طهته.

٦

الغيث

كانت نائلة واقفة في باحة البيت تدندن بأغنية غير مرحة وتحمل يداها إبريقاً زجاجياً مملوءاً بالماء وتسقي أصص الورد، فرنّ جرس باب البيت بإلحاح، فسارعت إلى فتح الباب لتجد أجيراً صغير السن من أجراء زوجها خبّرها بصوت متقطع مذعور أن زوجها كاظم الحموي أغمي عليه وهو في متجره، ونقلته سيارة إسعاف إلى المستشفى، ولكنه مات قبل أن يصل إليه، فأفلتت أصابع يديها إبريق الماء وسقط على الأرض وتناثر شظايا، وفتحت عينيها إلى أقصاهما مدهوشة مذهولة مبهوتة، وشلّها حزن قاهر منعها من البكاء والندب والصراخ ولطم الوجوه والصدور، واكتأبت كآبة جعلتها تقعد على الأرض الباردة ذاهلة عن الكرسي الوثير القريب منها، وفجأة خضعت لخشوع جارف، فانحنت على الأرض وقبلتها، ونظرت إلى السماء، وصرخت: «أنت كبير يا رب!».

وكأن للمصائب سحرها الغامض العسير على التأويل، فعندما قعدت نائلة على الأرض كانت مجرد امرأة في الثلاثين من عمرها،

ولكنها عندما نهضت واقفة كان عمرها أقل من عشرين سنة، واختفى اللون الأصفر من جلدها ليحلّ محله لون وردي، وهرعت إلى المطبخ، ودلقت في البالوعة الزيت والسمن والخل، ونثرت على الأرض البرغل والأرز والعدس والفلفل والزعتر والملح كأن الطعام لم يعد مستساغاً بعد موت زوجها، وخرجت من المطبخ، وركضت بين غرف البيت وجمعت كل ما لدى زوجها من ثياب، وقطعتها بالمقص قطعاً صغيرة، ورمتها في باحة البيت، وأشعلت فيها النار، وأتلفت كل الصور الفوتوغرافية لزوجها وهي المؤمنة أن تقليد الخالق كفر، وحذفت من أرشيف زوجها في الآخرة صفحة خطيرة ملأى بالذنوب، وما كان يدهمها من حزن طاغ جعلها تنسى ارتداء ملاءتها السوداء، وسارت في الجنازة وراء التابوت الذي سجي فيه زوجها حاسرة الرأس وشعرها الأسود الطويل يتهدل على كتفيها وعلى وجهها متطايراً في الهواء، ولم تشتر ثوباً حالك السواد لحرصها على ألا تنفق أموال زوجها إلاّ على أعمال البر والإحسان، واكتفت بارتداء ثوب أحمر ضيق قصير لن يصل إلى ركبتين بلون الحليب مهما ركض، ومشت به بخطوات متباطئة وقور جعلت الرجال لا ينامون في الليل حزناً، وعندما وصلت الجنازة إلى المقبرة ووضع زوجها في حفرة القبر وأهيل التراب عليه، طاش صوابها، وزغردت وهي تظن أنها تولول، وصاحت به متسائلة بصوت ملتاع: «كيف رحت يا كاظم وتركتني؟».

وكان زوجها كاظم الحموي غصناً مقطوعاً من شجرة مجهولة، لا أهل له البتة، وكان غنياً لا يثق بالمصارف ولا بالأوراق النقدية، وكل ما يجمعه يحوّله ليرات ذهبية ويخبئها في بيته في أماكن سرية لا تجهلها نائلة، وكان يملك متجراً كبيراً يحتوي جميع أنواع الأقمشة وأغلاها، فباعته نائلة على عجل بكل ما فيه كأنها على

سفر قريب، ولكنها لم تسافر، وأبت العيش في بيت شهد حياتهما بحلوها الكثير ومرّها القليل، وباعته أيضاً، واشترت بيتاً آخر أكبر وأفخم حتى يتسع لذكرياتها المشتركة مع زوجها، وفرشته من أوله إلى آخره بأثاث جديد، ولم يكفّ الرجال متزوجين وعزاباً عن التردد إليه لتقديم تعازيهم إلى امرأة لا تنسى زوجها الذي مات.

٧

الجولة الأولى

لم يقنط علاء السلاط، ولاحق طوال شهور سعدة الملّي بالنظرات الولهى والرسائل السرية المعطرة حتى وافقت على أن تلتقيه خارج الحارة في شارع بعيد عن عيون الرقباء الوشاة، وسارع إلى الإمساك بيدها لحظة التقيا، وضغط عليها محمر الوجه، وتبادلا النظرات، فرأته أكثر الشبان وسامة وجاذبية، ورآها أجمل فتاة، وقال لها إنه يحبها أكثر مما يحب الدجاج المشوي، فأغمضت عينيها نصف إغماضة، وقالت له بصوت خافت مرتبك خجل إنها أحبته منذ أول نظرة أكثر مما تحب أغاني فريد الأطرش، فسألها دهشاً مستنكراً: «أتمزحين؟ كيف تطيقين سماع أغانيه؟ أنا في حياتي كلها لم أستطع سماع أغنية واحدة من أغانيه، فكل أغانيه سخيفة».

فاغتاظت سعدة، وقالت له بنزق: «أغانيه ليست سخيفة، وتمسّ القلب، ولا يتذوقها إلاّ الإنسان الحساس المرهف».

فأفلتت يده يدها، وقال لها متسائلاً بحنق: «أتعنين أني بليد وبلا إحساس؟».

فأجابت سعدة بلهجة تحد: «إفهم كلامي كما تشاء».

فقال لها علاء بصوت ساخط: «لم تخلق بعد المرأة التي تهين علاء السلاط».

فتحفزت سعدة كأنها تستعد لصفعه، وقالت له مهددة: «ولم يخلق الرجل الذي يهين سعدة الملّي».

وتخيلت سعدة علاء جالساً ليل نهار وراء مائدة مغطى سطحها بالدجاج المشوي ويأكل وهو يلهث بصوت مرتفع ويتصبب عرقاً، وتخيّل علاء سعدة تنصت لأغاني فريد الأطرش، وكلما سألها سؤالاً أجابت بمقطع من أغاني فريد الأطرش، وحدّق إليها فرآها فتاة نحيفة، كبيرة الفم، بلهاء النظرات ذات وجه أصفر يثير الغثيان، وحدقت إليه، فلم تر سوى دب متنكر في شكل شاب بدين، قصير القامة ذي ساقين معوجتين وعينين بلون الطحالب، وافترقا مشمئزين نادمين.

٨

نهار وليل

نشرت الجرائد الصباحية خبراً مفاده أن وزير المالية قدم استقالته والبحث جار عمن يخلفه، ففرح نواف الحمصي، وبادرت يداه وقدماه وأنفه إلى تهنئته مؤكدين له أنه سيصبح الوزير الجديد للمالية إذا كان البحث يطمح فقط إلى العثور على الرجل الكفء، وسألته قدمه اليمنى عن أول ما سيفعله، فقال لها من دون تفكير: «سأركب في سيارة الوزير، وأجلس على كرسي الوزير، وأقبض راتب الوزير، وأحصل على الهدايا السرية اللائقة بالوزير».

وسأله أنفه عما سيقوله في أول خطبة له، فقال نواف: «لديَّ الكثير، ولكني سأكتفي بانتقاد الضرائب الحالية، وأطالب بأن تخفض أو ترفع».

وسأل نواف الحمصي قدمه اليسرى: «ما بك ساكتة؟ لم تسألي أي سؤال على غير عادتك».

قالت القدم اليسرى: «كل ما يشغلني الآن هو أن أحذيتك كلها عتيقة، فماذا ستفعل؟».

فقال نواف: «سأذهب حافياً، ولن يتنبه أحد لأن الذين حولي سيكونون مشغولين بالحملقة إلى وجهي لمعرفة ما أريد وما لا أريد».

واستمع نواف مساء إلى نشرة تلفزيونية للأخبار، جاء فيها أن ثمة مرسوماً قد صدر بتعيين وزير جديد للمالية، ولم يكن اسمه نواف الحمصي، فهللت الكتب المتناثرة حول نواف فرحة باضطراره إلى البقاء معها، ونشب نقاش حاد بين كتاب «البخلاء» للجاحظ وبين كتاب «الأيام» لطه حسين، ولكن نواف الحمصي أنهى النقاش بصيحة نزقة تذكّر الكتب بأنها وجدت لتُقرأ لا لتثرثر.

فقال كتاب «الأجنحة المتكسرة» لجبران خليل جبران بلهجة متحدية: «من يعرف ما هي الفوارق بين القراءة والثرثرة؟».

فتثاءب نواف بملل بينما قال كتاب «الأغاني» للفيروزآبادي: «لو كنت ناراً لأحرقت كل كتاب لا يسكت احتراماً لليل».

فقال له كتاب «اللص والكلاب» لنجيب محفوظ: «لا تظن أن كثرة عدد صفحاتك تخيف وترعب وتعطيك الحق في أن تهدد وتتوعد».

وقال ديوان شعر مجهول العنوان والمؤلف: «أقترح دقيقة صمت حداداً على أرواح القتلى في زلزال كولومبيا».

فسارع نواف إلى الخروج من غرفته، وغادر بيته، وذهب إلى مقر إحدى الجرائد، والتقى رئيس التحرير الذي استقبله بحفاوة تليق بكاتب معروف، وبادر إلى تهنئته بحرارة على مقاله الذي أرسله إليه قبل أيام وقرأه بمتعة لما فيه من أفكار جديدة وجريئة، فقال نواف لرئيس التحرير محمر الوجه: «كل ما يهمني أن ينشر بسرعة حتى لا تفوته المناسبة التي كتب عنها».

قال رئيس التحرير: «يشرّف جريدتنا أن تحظى بنشره، ولكنه يحتاج إلى تعديل طفيف آمل ألاّ تعارضه».

قال نواف: «القلم في يدي، والمقال أمامي».

قال رئيس التحرير: «عنوان المقال بديع جداً، ولكنه مثير وساخر لاذع، وجريدتنا كما تعرف رصينة تفضل العناوين الهادئة».

قال نواف: «العنوان ليس مشكلة، وسيعدّل».

قال رئيس التحرير: «ومقالك يتضمن نقداً قاسياً لجهات نحرص على صداقتها، وما يضرّنا يضرّك».

قال نواف: «سأحذف النقد».

قال رئيس التحرير: «ولكنها جهات ذات جهود يليق بها التنويه والإطراء، ولا يتجاهلها من كان مثلك ذا ضمير حرّ».

قال نواف: «سأمدحها بدلاً من نقدها».

قال رئيس التحرير: «ومقالك طويل يتألف من أكثر من ألفي كلمة، ونفضل أن يختصر إلى أربعمئة كلمة أو أقل، فأنت تعرف أن قراء هذا العصر يضجرون من المطوّلات».

ففكر نواف لحظات ثم سأل رئيس التحرير: «لو غيّرت مقالي حسب ملاحظاتك، فماذا سيبقى منه؟».

قال رئيس التحرير تواً: «سيبقى اسمك ببنط أسود كبير والمكافأة التي ستدفع لك بعد النشر».

فسكت نواف، وانكب على تصحيح مقاله تصحيحاً يؤهله للنشر في الجريدة الذائعة الصيت، ولما أنجزه سلمه إلى رئيس التحرير، وسارع إلى مغادرة مقر الجريدة، وذهب إلى حفلة خطابية لا مفر له

منها، وجلس بين أصدقاء قدامى يتصنع الإنصات لما يقوله الخطباء، فلكزه صديقه أحمد الجالس عن شماله، وقال له بصوت آمر: «صفق يا نواف صفق».

ـ : «لم أسمع من الخطباء ما يدعو إلى التصفيق».

ـ : «لا تناقش وصفق».

ـ : «سأصفق فقط حين أريد أن أصفق».

ـ : «ستصفق لأن الأوامر تقضي بالتصفيق».

فصفق نواف بحماسة، ولكز صديقه درويش الجالس عن يمينه، وأمره بأن يصفق، وظل نواف يصفق على الرغم من أن يديه تعبتا وتورمتا وانتفختا، فلكزه ثانية صديقه أحمد الجالس عن شماله، وسأله مستغرباً: «لمن تصفق؟».

ـ : «للسادة الخطباء».

ـ : «لا يوجد الآن أي خطيب وراء الميكروفون».

ـ : «لعلّي أصفق إعجاباً بالصنع المتقن للميكروفون».

ـ : «الميكروفون صناعة أجنبية مستوردة من بلد أجنبي».

ـ : «والتصفيق صناعة محلية تقوي اليدين والذراعين».

ـ : «انتهت الحفلة ولم يبقَ في القاعة سوانا».

ـ : «ولكنك لا تزال تصفق».

ـ : «أنا أصفق لأن رجلاً كان يجلس بجواري لكزني وأمرني أن أصفق طالباً إليَّ أن آمرك بأن تصفق».

فلكز نواف ثانية صديقه درويش الجالس عن يمينه، وسأله بدهشة وهو يصفق: «لماذا تصفق؟».

فلكز درويش زوجته آمنة التي كانت جالسة بجواره، وسألها باستنكار وهو يصفق: «لماذا تصفقين؟».

فربتت آمنة بطنها برفق، وسألت جنينها ضاحكة: «لماذا تصفق؟».

ولما عاد نواف إلى غرفته بعد منتصف الليل وجد كتبه صامتة نائمة، فصمت مثلها ونام، ورأى في أثناء نومه أنه يسبح في الفضاء، ويركل الكرة الأرضية، فتتفتت غباراً ولحماً ممزقاً.

٩

ملاءة في زقاق

لو قدر لمحسن الفاير ألا يعبر ذلك الزقاق الضيق المتعرج في حارة قويق محاولاً اختصار طريقه لما كان الآن في هذه الحفرة وظلمتها التي تغمّ القلب، ولكان يمشي على سطح الأرض فرحاً مرحاً مغموراً بضوء شمس ساطعة أو لربما كان جالساً باسترخاء في مقهاه يدخن النرجيلة ساخراً من أحاديث أصدقائه عن نساء غامضات جميلات شهيّات أو لربما كان مستلقياً على سريره يسمع شتائم إخوته الصغار المتشاجرين، ولكنه مشى في ذلك الزقاق بخطوات ثابتة سريعة، فاستوقفته امرأة ترتدي ملاءة سوداء، وسألته بصوت ناعم خجل: «أتعرف يا أخي أين بيت حمود الغايب؟».

فقال محسن لها: «لي صديق اسمه عبد الحليم الغايب، ولكنه لا يسكن هنا».

فقالت المرأة: «البيت الذي أريده هو بيت حمود الغايب».

وفتح في تلك اللحظة باب أحد البيوت القريبة، وخرج منه شاب يحمل عصا غليظة، واندفع نحو محسن زاعقاً بنزق واستنكار: «ألا

تستحي؟ كيف تتجرأ على التحرش بأختي؟».

فهرعت المرأة ذات الملاءة السوداء، ودخلت البيت بعد أن رمقت الاثنين بنظرة عدائية مزدرية صافقة بابه خلفها بشدة، وقال محسن للشاب محاولاً تهدئته: «اسمع يا أخي اسمع..».

فقاطعه الشاب صارخاً: «خسئت! أنت أقل من ربع رجل، وإخوتي كلهم رجال وأسياد الرجال».

قال محسن بصوت مرتبك: «هناك سوء تفاهم. الآنسة أختك سألتني عن بيت وأنا جاوبت».

فقال له الشاب: «وعمن سألتك؟».

قال محسن: «عن بيت حمود الغايب».

فضحك الشاب ضحكة ملأى بالغيظ، وقال لمحسن: «أنا حمود الغايب، فهل تريد جنابك إقناعي بأن أختي التي تعيش معي نسيت البيت الذي ولدت فيه؟».

قال محسن: «أنا حكيت لك بالضبط ما حدث، واسأل أختك شاهدة».

قال الشاب: «أختي وأعرفها، وهي أشرف من كل نساء عيلتك».

قال محسن: «لا أدري ماذا أقول لتقتنع».

فقال الشاب لمحسن وقد انفجر غضبه عاتياً: «قل إنك كلب، تتحرش بالنساء وأنت لا تعلم أن وراءهن رجالاً يحمونهن من رذالة الغرباء أمثالك».

وأهوى الشاب بعصاه الغليظة على رأس محسن في ضربة عنيفة، فسقط محسن على الأرض وقد شجّ رأسه وسال دمه غزيراً، ولم يتوقف الشاب عن ضربه بعصاه، ولكنه لم يضرب سوى الرأس، فندم محسن، فلو لم تكلمه تلك المرأة ويكلمها لما كان الآن مسجى في حفرة باردة محطم الرأس محروماً مشاهدة مباراة في الملاكمة ستنقلها محطة تلفزيونية، وينتظر نتائجها بشوق.

١٠

الإجازة

رحّب دياب الأحمد بتكاثر الكتب في بيته، وازداد ابتهاجاً عندما خرج من صفحاتها رجال ونساء وأطفال، تكلّموا معه، وشربوا من قهوته، ودخّنوا من سجائره، وأكلوا من طعامه، وناموا في سريره، واستحمّوا في حمامه، واطلعوا على مذكراته الخاصة الملأى بالشكوى والسخط، ومزّقوها بأيد مرحة، وصنعوا منها قبعات وزوارق وطائرات، ونجحوا في إغرائه بالرحيل معهم إلى أرضهم الخضراء، ففحص الأطباء ملياً جسده الساكن، وقرروا أنه مصاب بإغماء لن يصحو منه، واستغربوا وجهه المطمئن الضاحك.

١١

الطالق

دخلت امرأة متشحة بالسواد إلى المقبرة بينما كانت شمس الظهيرة تحاول إرغام الناس على الاختباء في بيوتهم ومقاهيهم المبرّدة هرباً من لهيبها، فتبعها رجل بدين، قصير القامة، صارم الوجه، وراقبها وهي تسير بين القبور وتتوقف عند أحدها وتجلس قربه القرفصاء محنية الرأس والظهر، فاقترب منها بخطوات سريعة واثقة، وقال لها متسائلاً باستنكار: «ماذا تفعلين؟».

ففوجئت بسؤال لم تتوقعه، وقالت بصوت مضطرب: «أزور زوجي».

فتلفت الرجل حوله بنظرات ساخرة، وسألها: «وأين زوجك؟».

فأشارت بسبابتها إلى أحد القبور، فسألها الرجل: «ومتى مات؟».

قالت المرأة: «منذ سنة».

قال الرجل وهو يتصنع الإشفاق: «سنة كاملة بلا رجل عذاب لا يحتمل».

وتطلع الرجل حوله، فلم ير سوى المقبرة خالية من الناس، فانقض

على المرأة بحركة مفاجئة، وطرحها أرضاً بجوار قبر زوجها، فحاولت الصياح والاستغاثة، ولكن يده أطبقت على فمها بقسوة بينما استلت اليد الأخرى سكيناً لامست حنجرتها، وسمعت صوت الرجل يقول لها مهدداً: «سأذبحك».

فقالت له متوسلة: «لا تمزق ثيابي، فكيف سأعود إلى البيت بثياب ممزقة؟».

قال الرجل: «ما أمزقه لا يُرى وأنت ماشية في الطريق».

فغضب زوجها، وحثّها على أن تقاوم حتى الرمق الأخير، وذكّرها بأن النساء الشريفات يفضلن أن يذبحن ذبح النعاج ولا يستسلمن، فكان جوابها لهاثاً مألوفاً سمعه كثيراً من قبل في غرفة نومه، ولم يتح لها أن تتنبه لزوجها وهو يبلغها بصوت مزدر أنها طالق.

١٢

خاتمة الهلاع

ابتلع جابر المقصون حبة صفراء اللون قبل أن يلقي خطبته في المسجد منددأ بتلك الحبوب الصفر التي يروّجها الحلاق سعيد الهلاع لتحديها مشيئة الخالق الذي لو شاء لخلق عباده أجمعين أغنياء أقوياء سعداء وبغير أمراض وعلل، وابتلع أحمد الحطمي المعلم في إحدى المدارس الثانوية حبة صفراء، وجلس في المقهى، وقال لكل من حوله بصوت عال غاضب إن الحلاق سعيد الهلاع لو كان محباً لحارته لوزع حبوبه الصفر على أهلها مجاناً أو باعها لهم بأسعار مخفضة، ولما استغل حاجتهم إليها أبشع استغلال، وابتلع سالم الحبال صاحب أكبر شاربين خفية حبة صفراء، وقال بفخر لأصدقائه السكارى المترنحين في أرجاء بيت سميرة الرقاصة إن الرجل يولد رجلاً ولا يمكن لحلاق أن يصلح ما أفسده الدهر، ولكن أهل حارة قويق لم يكترثوا لكل ما أشيع عن تلك الحبوب الصفر، واتفقوا على أنها مدهشة عجيبة غريبة، لها أثر خارق في الجسم والعقل والنفس أشبه بالسحر إذ تجعل العقيم حاملاً والهرم قادراً على الزواج بأربع نساء في ليلة واحدة والجبان الرعديد شجاعاً جريئاً يصول ويجول غير هارب ويطلب مبارزاً

والتلميذ الغبي البليد الكسلان نجيباً مجتهداً يفوز بالمراتب الأولى في كل امتحان والتعيس المهان الذليل طافحاً بالفرح والكبرياء، وصارت كل زوجة في حارة قويق حين تلاحظ أن زوجها بات مشدود القامة، شامخ الرأس، يمشي على الأرض كأنه مالكها الوحيد لا تحتاج إلى سؤاله عن سبب تغيّره، وتعرف فوراً أنه قد انضم سرّاً إلى مدمني تلك الحبوب الصفر التي يبيعها الحلاق سعيد الهلاع، والذي تبدلت أحواله، وأصبح الناس يسعون لإرضائه بعد أن كان طوال حياته يسعى لإرضائهم، وأغلق دكان الحلاقة طارداً زبائنه الذين اعتادوا قصّ شعرهم لديه، ولم يلمه أحد لمعرفة القاصي والداني أن ما يربحه الآن في يوم واحد كان لا يربحه في عام، وقعد في بيته واثقاً أن من يبغي حبوبه سيقصده ولو كان مقيماً بآخر الدنيا، وقد أثارت حبوبه في البداية عواصف من الشائعات حول أثرها، وما لبثت أن خمدت لتحلّ محلها شائعات أخرى تتساءل عن أصلها ومصدرها، ولكن سعيد الهلاع كلما سئل عنها اكتفى بالابتسام وأشار بيده إلى أعلى، فروقب مراقبة دقيقة طويلة لم تسفر إلاّ عما يزيد الحيرة، فهو قاعد في بيته محتضناً ابنه الصغير أو زوجته، لا يزوره غريب ولا يزور أحداً، ولا يأتيه البريد برسالة أو طرد، ولا يشتري من السوق ما يصلح لأن يكون موادّ أولية لحبوب، ولم يتح لأحد أن يعلم من أين تجلب أو كيف تصنع ومن يصنعها وما هي مكوناتها، وحاولت صديقات لزوجته أن يستدرجنها للإفضاء بما يرشد إلى كيفية حصول زوجها على تلك الحبوب، فإذا هي لا تعرف عنها أكثر مما هو معروف، وأخبرتهن أن زوجها يصرّ على ألا تتناول أية حبة بحجة أنها كاملة وكما يريد، ولا يريدها أن تكون كما تريد، وتوافد كبار التجار على سعيد الهلاع، وعرضوا عليه مشروعات مغرية لصنع لتلك الحبوب

وتسويقها في كل مكان من البلد، فكان جوابه أن حبوبه لحارته فقط، وعرض عليه آخرون خبراء في التصدير والاستيراد أن تصدّر حبوبه إلى شتى بلدان العالم لتجني الأرباح الطائلة، فرفض باستنكار وحدّة، وردّ بأن أرباحه ستكون آنذاك مالاً ليس حلالاً، فابتدأت النقمة عليه تنمو في الحارة وتتغلغل، وقويت واشتدت بعد أن اختفت الفوارق بين الأذكياء والأغبياء وبين الأقوياء والضعفاء، وتصدى رجال عرفوا دائماً بالجبن والقبول بالإذلال لرجال ذاع صيت قوتهم وشجاعتهم وجرأتهم، وتغلبوا عليهم وجعلوهم هزأة، فلم يلم الرجال المهزومون المهانون أحداً إلاّ سعيد الهلاع وحبوبه، وعُثر عليه ذات يوم بالقرب من بيته مقتولاً مشوهاً بعد أن عُذب طويلاً، ولم يُعرف قاتله، ولكن موته أدى إلى اختفاء الحبوب الصفر من حارة قويق، وعاد الجبان جباناً والغبي غبياً والتعس تعساً.

١٣

يا خسارة!

أُدخل جاسم القزاز إلى باحة السجن مخفوراً، فاشتهى أن يدخل غرفة نوم زوجة مدير السجن التي رآها واقفة على باب مكتبه تحادثه ضاحكة، امرأة ناضجة كالدراق في آب وفرساً تصهل بصوت خفي محرضة على أن تروّض، ولكن الحارس نخزه في ظهره بعقب بندقيته قائلاً له بصوت آمر: «استح وامش بلا رذالة».

واقتاده الحارس إلى زنزانة يقيم بها عشرة رجال محكومين بالسجن مدداً طويلة، وأقلّ سجين بينهم محكوم بسبع سنين، وقد سأله سجين ذو شاربين كثين ووجه لا يضحك عن سبب دخوله السجن، فأجاب جاسم فوراً: «جريمة قتل».

قال السجين: «وماذا قتلت؟ طنجرة ملأى بالكوسا المحشو بالأرز الفاخر ولحم الضأن المفروم؟».

فبوغت جاسم، ولكنه قال للسجين وهو يبتسم: «قتلت شرطياً».

فربت السجين كتف جاسم، وقال له: «هنا الكذب ممنوع ونعتبره

عيباً. الحارس الذي كان يرافقك اطلع على ملفك وأطلعنا على محتوياته قبل أن تشرفنا بحضورك».

فلم يرتبك جاسم، وقال: «صحيح أني سرقت، ولكني أوشكت أن أقتل الشرطي الذي حاول القبض عليَّ».

قال السجين: «وماذا سرقت؟ قل الصدق».

فتنهد جاسم، وقال: «كنت ماشياً في حارتي قاصداً جامعها لأصلي صلاة الظهر جماعة..».

فقال له السجين مقاطعاً: «وهل كنت تنوي سرقة أحذية المصلين؟».

فضجت الزنزانة بضحكات السجناء، فزعل جاسم، وسكت، فقال له السجين: «أكمل».

قال جاسم: «نسيت ماذا كنت أقول».

قال السجين: «سأذكرك بالبداية: كنت ماشياً».

قال جاسم: «كنت ماشياً، فشممت رائحة طعام يطبخ تطيّر العقل، وكانت الرائحة تنبعث من وراء باب بيت موارب، فدفعت الباب قليلاً، ورأيت باحة بيت خاوية تتوسطها طنجرة كوسا محشي على النار، فهجمت عليها كالبرق، وحملتها، وخرجت بها من البيت، فلمحتني امرأة مؤذية بنت حرام، وصاحت بصوت ممطوط: حرامي، فركضت في الحارة هارباً..».

فسأله السجين بلهفة: «وطنجرة الكوسا؟».

قال جاسم: «كنت أحملها محاذراً أن يندلق منها المرق، فطوقني رجال ليسوا من حارتي وبصحبتهم شرطي حاول القبض علي، فضربته..».

سأله السجين بفضول: «وبماذا ضربته؟ بكوساية محشية؟».

فضحك السجناء ثانية، فغضب جاسم، وحلف ألا يتكلم، فقال له السجين: «لديَّ سؤال أخير جاوبني عنه: ماذا حدث لطنجرة الكوسا؟».

قال جاسم: «لن أتكلم».

قال السجين: «هل تُقدم طنجرة الكوسا إلى المحكمة ساخنة كأدلة ثبوتية دامغة؟».

قال جاسم: «لن أتكلم».

فقال له السجين وهو يعاود تربيت كتفه: «أنت الآن ضيفنا لمدة طويلة، وستتكلم حتى تسمع صوتك ولا تنسى الحكي».

فقال جاسم: «غداً محاكمتي، وسيصدر الحكم ببراءتي».

فأمسك السجين بشعر شاربيه قائلاً: «سأحلق شواربي إذا حكمت بالبراءة».

واقتيد جاسم القزاز في صباح اليوم التالي إلى قاعة المحكمة مكبل اليدين بالأصفاد، فبادرت زوجته بديعة إلى التلويح له بيدها، ولوّحت له أيضاً أيدي عشرة أولاد صغار مختلفي الأعمار كانوا برفقتها، فنظر إليهم بعينين تكبتان برجولة دموعاً حبيسة، وترنح ترنحاً تكاد العين لا تلمحه، ولكنه جهد لاستعادة رباطة جأشه وتماسكه، ومثل أمام القاضي محني الرأس قليلاً، وتكلم بصوت طفل مرح اضطر إلى أن يعرف الأحزان منذ يوم شهد موت أمه، وأقرّ بما فعله خجلاً، ولكنه أضاف أنه لم يسرق لا سيارة ولا بناية ولا بنكاً بل سرق ما يشبع أولاده العشرة الذين تركهم في البيت

يكون جائعين، وأشار بسبابة مرتعشة إلى حيث زوجته والأولاد، فأجهش الأولاد تواً بالبكاء بأصوات عالية، فارتبك القاضي، وأمر أمهم بإسكاتهم، فحاولت الأم أن تسكتهم، ولكن دموعهم أرغمتها على البكاء، فقطب القاضي جبينه، وبدا عليه كمن يحاول التفكير بسرعة ثم نطق حكمه بأن يدفع المتهم غرامة مالية ثمن ما حاول السطو عليه، ونصحه ألاّ يسرق ثانية حين يجوع أولاده، وأمر بإطلاق سراحه، وما إن حررت يداه من الأصفاد حتى ركض فوراً إلى زوجته وإلى الأولاد الذين تحلقوا حوله متشبثين بثيابه متصايحين بفرح: «بابا.. بابا».

وخرج جاسم القزاز من قاعة المحكمة وبرفقته زوجته والأولاد العشرة، ورأى صديقاً قديماً، فتصافحا وتعانقا وتبادلا القبل وغرقا في حديث طويل، فملّت زوجته انتظاره، وسارعت إلى الحارة لتعيد الأولاد إلى أهاليهم الذين استأجرتهم منهم لأربع ساعات بأسعار معقولة حريصة على أن تسرع قبل حلول ساعة خامسة، وعاد جاسم القزاز إلى حارته بعد ساعات ليتابع العيش كما تعوّد أن يعيش، ولم يبزغ القمر في الليل كما كان متوقعاً، فاغتاظ أهل الحارة وحاروا وتهامسوا، وحملقوا إلى جاسم القزاز بريبة، ولكن القمر بزغ بعد قليل ليبدد أية شكوك.

وعندما كان جاسم يتعشى مع زوجته بديعة بعد منتصف الليل كعادتهما، قال لها متسائلاً: «أتعرفين يا بديعة أن سجني هو درس لك؟».

قالت بديعة ضاحكة ومستغربة: «أنا لم أدخل السجن، فكيف يكون درساً لي؟».

قال جاسم: «لو خرجت من البيت شبعاناً لما أغرتني طنجرة الكوسا».

فصفنت بديعة، فسألها جاسم عما بها، فقالت: «غريب! ألم يكن السجن درساً لك أيضاً لتتوب عن السرقة؟».

قال جاسم: «بالتأكيد. لن أسرق في المرة القادمة سوى بنك ما دامت البهدلة واحدة».

قالت بديعة: «أنا لم أدخل بنكاً في حياتي، فماذا ستسرق منه؟».

قال جاسم: «آلاف الدولارات أو مئات الآلاف أو آلاف الآلاف».

قالت بديعة بفرح: «سنشتري سيارة».

قال جاسم: «المشي على القدمين أنفع للصحة».

قالت بديعة: «وسنشتري بيتاً جديداً».

قال جاسم: «من المعيب أن نترك البيت الذي تزوجنا فيه».

قالت بديعة: «وسننتقل من هذه الحارة إلى حارة راقية».

قال جاسم وقد هبّ واقفاً مكفهر الوجه مردداً: «أعوذ بالله! أعوذ بالله!».

وسُرقت بنوك كثيرة وأبنية كثيرة ومتاجر كثيرة، ولم يكن جاسم القزاز سارقها، وسُرقت ملعقتان من مطعم يتردد إليه جاسم القزاز، فاعتقل وحقق معه بأساليب شرسة، وأحيل على المحاكمة، ونُقل إلى السجن، فاستقبله السجين ذو الشاربين الكثين والوجه الكالح مرحباً، وسأله: «ما جريمتك هذه المرة؟».

قال جاسم: «متهم ظلماً بسرقة ملعقة».

قال السجين: «وأنت بريء، بالطبع لم تسرقها؟».

قال جاسم: «ولماذا أسرقها إذا كنت طوال حياتي لا آكل طعامي إلاّ بيدي؟».

قال السجين: «جريمتك هذه المرة خطيرة جداً، فهل تبرأ أم أنك ستشنق؟».

قال جاسم: «سأبكي في المحكمة وأطالب بالشنق حتى أتخلص من أسئلتك وصحبة الشباب».

فضجت الزنزانة بالضحكات الساخرة، فلم يغضب جاسم، ولم يهدد بالامتناع عن الكلام.

١٤

رجل لامرأة واحدة

طوحت سامية ديوب بالكتاب الذي كانت تقرأه إلى عتبة غرفة نومها، وأطفأت المصباح الكهربائي القريب منها، وأسلمت رأسها للوسادة راغبة في نوم طويل عميق، ولكنها ظلت مفتوحة العينين أرقة حانقة حنقاً لا يخلو من مرارة، فهي صبية جميلة، جذابة، مغرية، آسرة، مرحة، تحكي فتزداد فتنة لا تقاوم، متعلمة، ذكية، وتملك أرصدة في المصارف ورثتها عن أبيها المتوفى، وتملك سيارة محسودة وبيتاً مكتظاً بكل أنيق وغالٍ من الأثاث، ولكنها كلما التقت رجلاً وأعجبت به بدا أمامها كأنه مجرد سمكة صغيرة خائفة يدنو منها حوت لابتلاعها، ويتوارى عن أنظارها من دون إنذار كأنه ملح نثر فوق بحر.

ولم تستطع سامية النوم، وأشرقت شمس الصباح وهي لا تزال مفتوحة العينين تحملق ببلاهة إلى سقف الغرفة، فأقسمت وهي تتمزق غيظاً ونزقاً أنها سترحب بأول من يتقدم إليها طالباً الزواج منها حتى لو كان كلباً أجرب من كلاب الشارع الشاردة، وتلفتت حولها وهي تحس أن بيتها الفسيح الأرجاء قد تضاءل وصار خانقاً،

وخيّل إليها أن القليل من المشي في الهواء الطلق سيخفف من كآبتها ويساعدها، ولكنها ما إن خرجت من باب بيتها حتى تحلّق حولها عدد كبير من الكلاب المرفوعة الذيول والأنوف، وكل كلب ينبح مدّعياً أنه الأول والمؤهل لأن يكون وحده زوجها، فصاحت سامية بالكلاب: «يبدو أنّكم مخدوعون، فقد علمتم الجزء الأول العاقل من قسمي، ولم تعلموا الجزء الثاني المجنون من قسمي، والذي أقسمت فيه بأني في الليلة الأولى من زواجي سأدسّ سماً قاتلاً في طعام زوجي، وأميته شر ميتة عقاباً لتأخره في الزواج مني».

فتراجعت الكلاب إلى الوراء، وكفت عن النباح، فسألتها سامية بتحد: «من منكم لا يزال راغباً في الزواج؟».

فبادرت الكلاب إلى الفرار، ومشت سامية في الشوارع شامخة الرأس، واستنشقت هواء ممتزجاً ببنزين السيارات والغبار وروائح قمامة متعفنة، وظلت تمشي حتى تعبت وجاعت، وتذكرت فجأة أن صديقاً تعرفه منذ خمس سنوات قد دعاها اليوم إلى الغداء، فقصدت المطعم لتجد صديقها في انتظارها، وتناولا طعام الغداء معاً، وتنبهت سامية إلى أن صديقها مرتبك، فسألته عما به، فقال لها محمر الوجه إنه سيطلب منها طلباً يأمل ألا يغضبها ويدفعها إلى الامتناع عن رؤيته، فأحست سامية أن الرايات السود المرفرفة على أيامها توشك أن تنكس وتحرق، فقالت له: «اطلب ما تشاء ولن أزعل».

فطلب منها بصوت متلعثم يكبله الخجل أن تسمح ليده بمسّ يدها، فطار عقل سامية من رأسها، وقالت لصديقها: «جرؤت على أن تطلب مسّ يدي بعد خمس سنوات من المعرفة والصداقة،

وستحتاج إلى خمسين سنة لتطلب الإمساك بيدي وخمسمائة سنة لتطلب الإمساك بركبتي».

وغادرت سامية ديوب المطعم والغضب يعصف بجوانحها، ورأت باصاً واقفاً والركاب يصعدون إليه، فبادرت بالصعود إليه والجلوس على أحد مقاعده، ونشب نزاع بين جابي الباص وبين راكب شاب أعطاه ورقة مالية كبيرة ليحسم منها ثمن التذكرة، فرفض الجابي أخذها، وأوقف الباص، وطلب إلى الشاب الطويل القامة النزول بلا تأخير، ولكن الشاب ظل متجمداً في مكانه بعناد، فدفعت سامية للجابي ثمن التذكرة المختلف عليها، فشكرها الشاب وجلس بجوارها، وراح يتابع شكرها حتى ملّت، ولكنها أعجبت بعينيه، فهما في آن واحد عينا رجل قادر على أن يقتل وعينا طفل ساذج مرح، شعره أسود كثيف مصقول كأنه ذيل حصان، وله وجه تستطيع أن تراه ليل نهار من دون أن تضجر، وعمره أكبر من عمرها بسنتين أو ثلاث سنوات، فابتسمت ابتسامة ماكرة، وقالت له: «كفّ عن شكري وإلاّ وجدت نفسك تطلب الزواج مني لتعبر لي عن شكرك».

فباغتها الشاب بأن قال لها فوراً وبحماسة ولهفة: «ليتك تقبلين!».

فتذكرت سامية قسمها صباحاً، وسألته ضاحكة: «وكيف تريد الزواج مني وأنت لا تعرفني وأنا لا أعرفك؟».

فأمسك بيدها بعفوية كأنهما صديقان منذ ألف سنة، وقال لها: «كنت دائماً أقول إني لن أتزوج إلاّ امرأة تنظر إليَّ، فأحسُّ بخوف لا يزول إلاّ حين تبتسم».

ـ : «ها أنذا أنظر إليك، فهل تحس بالخوف؟».

ـ : «أنا خائف إلى حد أني راغب في الاختباء تحت اللحاف».

ـ : «ومتى نتزوج؟».

ـ : «عند انتهاء المعاملة الرسمية للزواج».

ـ : «متى؟ بعد سنة؟ بعد عشر سنين؟».

ـ : «أنا لم أتزوج في حياتي ولا مرة، وأظن أنها ستنتهي بعد أيام قليلة».

ـ : «إمّا الزواج اليوم، وإمّا لا زواج».

ـ : «أنت تعرفين أزمة البيوت».

ـ : «لديَّ بيت طويل عريض يكفي لعشر عائلات».

فابتسم الشاب، وتخلت يده عن يدها، فأحست يدها بوحشة غامضة، وسارع الشاب إلى الوقوف متأهباً للنزول من الباص، فسألته سامية: «لماذا وقفت؟ كأنّك نويت الهرب خائفاً؟».

ـ : «لنركض فوراً إلى بيتك. لا داعي إلى إضاعة الوقت».

ولما اقتربا من البيت، سألها الشاب بفضول: «بيتك الكبير كم سريراً فيه؟».

ـ : «سرير واحد».

ـ : «سيكفينا ويكفي أيضاً لطفل أو لطفلين».

ـ : «اسمي سامية، فما اسمك؟».

ـ : «طارق بن زياد».

ـ : «اسمك الحقيقي».

ـ : «طارق المرعي، وستصبحين سامية المرعي».

ـ : «وأين تسكن؟».

ـ : «مع أهلي في حارة قويق».

ـ : «هذه أول مرة أسمع فيها عن هذه الحارة».

ـ : «أعوذ باللّه! لا تغلطي. هذه حارة معروفة جداً، ولكن المولود في بنايات لا يعرفها».

ـ : «ماذا تشتغل؟».

ـ : «أنا عاطل عن العمل منذ سنة، وأبحث يومياً عن عمل ولا أوفق».

فابتسمت سامية ديوب ابتسامة غامضة، ولكنهما عندما وصلا إلى البيت عثر طارق المرعي على عمل جديد لا يستحق أن يوصف بالشاق، واستيقظت سامية صباحاً من نومها لتباغت برؤية بيتها أكبر مما كانت تظن ويصلح لأن يمرح فيه عشرات الأطفال، وعندما كانا يتناولان طعام الإفطار، لم تتوقف سامية عن التكلم بمرح بينما كان طارق يأكل ساكتاً يستعرض أسماء أصدقائه في حارته، وينتقي الصالح لأن يدعى إلى لحم امرأة جميلة بعد دفع أجر ليس بالباهظ.

١٥

المفتضح

افتضح غالب الهلاس، فجدّه مات مقتولاً بعد أن باع نفسه لجيش أجنبي محتل بسعر بخس منخفض، وأبوه الهيكل العظمي المغطى بجلد متهدل أصفر يلاحق الخادمات قاتلاً أو مقتولاً، ويتقيأ قرفاً من كل امرأة لا تفوح منها روائح البصل والثوم، وأمه يحكي عنها أجير اللحام كلاماً لا يصدق، ويزعم أنّها كلما فتحت له الباب لتتسلم اللحم تبادر إلى التشبث به وإرغامه على دخول البيت، ولا تتركه إلاّ بعد أن يتحوّل لحماً رخواً وقدمين عاجزتين عن المشي، وعمته تهوى سرقة الملاعق من المطاعم والمناشف من الحمامات العامة، وخالته هجر جيرانها بيوتهم وناموا على أرصفة الشوارع هرباً من فضولها وثرثرتها، وأخته هاربة من مستشفيات المجانين التي تطاردها لأنّ جنونها تنتقل عدواه إلى الآخرين عن طريق البصر والسمع والتنفس، وأخوه يصيد الكلاب الشاردة، ويذبحها، ويبيعها على أنها لحم خراف لم تفطم بعد، وزوجته تطارد النساء الجميلات الصغيرات السن، وتدفع لهن أي ثمن يرغبن فيه، ومن تخجل من تحديد ثمن تغدق عليها الهدايا الثمينة، وابنه الشاب المفتول العضلات الذي كان

الرجال يتنافسون على استئجاره صار اليوم هو الذي يبحث عنهم ويدفع لهم مستجدياً موافقتهم، وابنته الصبية طلقها زوجها بعد أن عجز عن تلبية طلباتها الليلية والنهارية، وأعادها إلى بيت أهلها قائلاً عليها إنها ليست امرأة بل هي فرن لا يتوقف عن طلب الحطب، ونصح بتزويجها مائة رجل.

افتضح غالب الهلاس، وكُشف أنه كان ابناً غير شرعي مجهول الأب، وكل ما لديه من أموال وعقارات ومزارع جُمع عن طريق الاحتيال والغش، فلم يكترث لكل ما حاق به من فضائح، وظل يمشي بين الناس على سجاد أحمر، وثرواته تزيد ولا تنقص.

١٦

القطّة

لم يتزوج مطيع المقطوع على الرغم من بلوغه الخمسين من عمره مكتفياً بالعيش وحده في بيت صغير رثّ مع قطة بيضاء يدللها كأنها طفلة تحبو، ويخصص لها كل وقته حين يعود من عمله، ويقلق عليها وهو بعيد عنها، وكان موظفاً في مؤسسة حكومية براتب لا يكفيه لأن يأكل كل يوم ثلاث مرات، لا يشكو ولا يتذمر بل كان على الدوام مرحاً يسخر من الصعاب ولا يبالي بها، ولكنه تبدل وفقد مرحه وبات عابساً حانقاً ساخطاً منذ أن فقد قطته، وطاف في كل مكان باحثاً عنها، وطرق كل أبواب البيوت في حارته مستجدياً أي خبر من أخبارها، ودفع رشاوى مغرية لأولاد الحارة لعل واحداً منهم يدلي بمعلومات ترشده إلى مصير قطته وما حلَّ بها، ولكن جهوده كلها باءت بالإخفاق، ولم يعثر على قطته كأنها طائر واختفى، فلو كانت قد قتلت أو ماتت لوجد جثتها، ولو سرقت لرآها أحدهم مصادفة، ولو ابتعدت عن البيت وضاعت لعادت إليه ولو بعد أسابيع، فهي تعوّدت الخروج معه حين يخرج صباحاً من البيت وتحوص في الحارة ريثما يعود من عمله.

وأراد مطيع المقطوع أن يتهم أعداء باختطاف قطته، ولكنه لم يوفق إذ لا أعداء له البتة، ولامه بعض رجال الحارة على حزنه الدائم على غياب قطته، فقال لهم إن قطته ليست كالقطط العادية، وتتكلم كالبشر، وكانت تنوي إخباره عن مكان كنز مدفون في بيته، ولو ظلت عنده لصار الآن غنياً، فقوبلت أقواله بالابتسامات المرائية والنظرات المشككة في سلامة قواه العقلية، وصار يقال في الحارة بأسف إن ضياع القطة رافقه ضياع العقل أيضاً، ولكن القطة عادت فجأة بعد غياب دام أشهراً جائعة بردانة معفرة بالأوساخ، فأوشك مطيع المقطوع أن يغمى عليه من شدة الفرح، ولو كانت في بيته امرأة لأمرها بالزغردة، واستقبل وفود المهنئين بوجه ضاحك وأذنين محمرتين كأنه أصبح أباً، واستدان من البقال والجزار، وأقام المآدب السخية احتفالاً بعودة القطة التي تبين بعد أسابيع أنها جلبت له أيضاً الحظ إذ صدر قرار غير متوقع بتعيينه مديراً عاماً لدائرة مسؤولة عن مكافحة التهريب، وتخلى عن بيته الصغير، واشترى بيتاً آخر كبيراً ذا احترام، وبات يأكل في اليوم الواحد خمس وجبات، وتنافست نساء الحارة العوازب والمطلقات على إغرائه بالزواج بهن، فانتشرت في الحارة شائعة تزعم أن قطته أنجزت وعدها وابتدأت ترشده إلى الكنوز المخبأة.

١٧

ليلة باردة

تمطى عبد الله القصير وهو يقف في غرفة نومه، وأنصت لحظات للمطر الغزير يرجم زجاج النافذة بقطراته ثم هرع إلى سريره كهارب، وتمدد عليه، وقال لزوجته بهيرة: «عجلي».

فأطفأت بهيرة المصباح الكهربائي، واندست بجوار عبد الله ضاحكة، فعانقها وقال لها بصوت خافت: «الليلة برد برد».

وسمعا في تلك اللحظة صوتاً نسائياً يصيح مستغيثاً، فقالت بهيرة بهلع إن الصوت صوت جارتها وفيقة التي تحيا وحدها بعد سفر زوجها، ويمكن أنّها تصيح لأن رجلاً غريباً تسلل إلى فراشها محاولاً الاعتداء عليها وهي الوحيدة الشابة الجميلة المشتهاة، فقال لها عبد الله: «لسنا جيرانها الوحيدين، وسينجدها غيرنا».

قالت بهيرة: «لن ينجدها أحد، فالكل مثلك كسلان ونعسان وبردان».

قال عبد الله: «لم أعد أسمع صوتها».

قالت بهيرة: «ربما منعها الرجل الغريب من الصياح، ويمزق الآن ثيابها».

فقال لها عبد الله وهو يزداد التصاقاً بها: «لا تتوقفي وتابعي وصف ما يحدث».

فابتدأت بهيرة بوصف ما يحدث، ولكن صوتها تهدج تدريجياً، وهربت منه أية كلمات مفهومة بينما كانت الريح تعصف خارج الغرفة في طرقات مقفرة مظلمة.

١٨

صامتون

التقى زهير صبري امرأة تشبه زهرة حمراء على غصن أخضر، فخبّرته بصوت مرتعش أنها تحبّه ولن تستطيع أن تحبّ غيره، فقال لها إنه لا يهتم إلاّ بمستقبله، فبوغت بصفعة مؤلمة تنهال على رقبته، فتلفت حوله، ولم ير الصافع.

وصُفع ثانية عندما قال لأحد الأثرياء إنه أعظم رجل أنجبته البلاد، ولم يرَ الصافع.

وصُفع مرة ثالثة عندما قبّل بخشوع يد رجل ذي لحية طويلة مشعثة، ورجاه أن يدعو له، ولم يرَ الصافع.

وصُفع زهير صبري كثيراً وفي كل يوم من دون أن يرى الصافع المجهول، ولم يكلّم أحداً عن تلك الصفعات السرية حتى لا يُسخر منه ويُتهم بالجنون، ولكنّه كان واثقاً بأنّ الناس أجمعين يُصفعون مثلما يُصفع ويلوذون بالصمت.

١٩

لا يعرف!

كان طريف النبري قد تواعد مع ثلاثة من أصدقائه القدامى على الالتقاء في حانة اعتادوا التردد إليها، ولكنه وصل إلى الحانة متأخراً أكثر من ساعة، فاستقبله أصدقاؤه بالصياح والهرج، فقال لهم وهو ينظر إلى مائدتهم التي تناثرت على سطحها القناني الفارغة: «أرى أنكم لم تنتظروني».

فقال له أحد الثلاثة بصوت متثاقل: «بلا حكي فاضي. إجلس واشرب بسرعة لتصبح عاقلاً مثلنا ويمكننا التفاهم معك».

فهزّ طريف رأسه موافقاً ومرحباً بسكرة تفقده صوابه، وابتدأ يحتسي الويسكي بشراهة وبسرعة الكأس تلو الكأس من دون إضافة ماء أو ثلج حتى يعوض ما فاته ويلحق بأصدقائه، ولما صار سكراناً مثلهم أو أكثر، استل من جيبه صورة فوتوغرافية ملونة لامرأة تشبه قرنفلة بيضاء، وأقسم بصوت يتعتعه السكر أنه لا يعرف تلك المرأة ولم يرها مرة واحدة في حياته، ولا يعرف من أعطاه صورتها ولا يعرف أن اسمها ليلى، ولا يعرف أنها سوداء الشعر بيضاء الوجه، ولا يعرف أن عينيها كبيرتان خضراوان، ولا

يعرف أنها تعمل يومياً موظفة في شركة تجارية تقع في شارع اعتاد التسكع على أرصفته، ولا يعرف أنها تسكن في شقة صغيرة تتألف من غرفتين ضيقتين، ولا يعرف سريرها، ولا يعرف أنها تحب ثياب النوم الحريرية وتفضل اللون الأزرق، ولا يعرف أن شعر رأسها يبتل بالعرق حين تزعل أو تفرح، ولا يعرف أنها لا تحب طعام المطاعم، ولا يعرف أنها ماهرة في الطهي، ولا يعرف أنّها تحب الضحك وتدخين السجائر ومداعبة القطط والمشي ليلاً، ولا يعرف أن جنينها مات أيضاً منتحراً، ولا يعرف أنّها تركت رسالة قصيرة رديئة الخط مزدحمة بالأخطاء اللغوية ملأى بالحب أكثر من العتاب، ولا يعرف لماذا تعاتبه وهو لا يعرفها وهي لا تعرفه، ولو كانت تعرفه لعرف أنها تعرفه ولما قال إنه لا يعرفها، وسأله جرسون الحانة ما إذا كان يرغب في أي عشاء، فأجاب طريف أنّه يترك لأصدقائه حرية الاختيار وسيأكل مما سيأكلون، فضحك الجرسون، وتنبه طريف عندئذٍ إلى أن أصدقاءه تركوا الحانة من دون أن يلحظهم، وتركوه وحيداً، يداه تتشبثان بصورة امرأة لا يعرفها، ولا يعرف أنّها تحبه، ولا يعرف أنّه يحبها، ولو كان يعرف لما أنكر.

٢٠

المستشارون

كان عزمي الفصاد يجلس في المقبرة الملاصقة لحارته أكثر مما يجلس في بيته، وواجه الساخرين منه بردّ حاسم خلاصته أنّ كل رأس حرّ في اختيار المخدة التي تريحه متسائلاً: «أيّهما أحسن لي: أن أجلس في مقبرة أم أجلس في خمارة أو ملهى أو نادٍ للقمار؟».

وأتاح له جلوسه الدائم في المقبرة اكتساب ثقة الموتى المدفونين في تلك المقبرة ومودتهم واحترامهم، ولكنه لم يصادق إلاّ المرموقين لاعتقاده أنّ من يعاشر الفقراء ينتقل إليه قملهم.

صادق حمزة الركبة الذي كان مديراً لبنك، ومات في السجن بعد أن ثبت أنّه اختلس الملايين، ولم يعثر على الملايين المنهوبة، فنال احترام السجناء والسجانين حتى آخر رمق في حياته.

صادق رشيد نصر الذي يملك بيوتاً ودكاكين وأراضي بعدد شعر رأسه، ولم يكن أصلع بل كان كثيف الشعر، واشتهر بحبه للزواج، يطلق ويتزوج ويطلق ويتزوج، والنساء أكثر من رمال الصحارى،

والعمر قصير، والسرعة مطلوبة إذا كانت الغاية الاستيلاء على كل النساء بالحلال.

صادق كريم المقل الذي تبوأ الكثير من المناصب المهمة، وآخر منصب له هو وزير للمالية، فشاع في عهده الزعم بأن الوزير مختلف عن كل الناس قاطبة، فبزته ذات جيوب لا نهاية لها سرية وعلنية، والجيوب السرية مهما امتلأت، فستظل جيوب أخرى فارغة تطالب بإلحاح أن تمتلىء كغيرها من الجيوب المحظوظة، وعندما توفي بالسكتة القلبية المفاجئة، نُكست الأعلام، واعتبر شهيداً من شهداء الوطن ودعامة من دعائمه الاقتصادية انهارت ولا تعوض.

صادق نذير البهلول الذي كان يقتل الناس بسهولة كأن الدم مجرد ماء، ولكنه لاقى مصرعه في مشاجرة تافهة، فقيل آنذاك القول الذي شاع وانتشر، وهو أن الذبابة تدمي مقلة الأسد.

صادق عميد الحلو الذي كان كاتباً مشهوراً، وزع على الوجهاء والأعيان وذوي النفوذ قائمة بأسعار مدائحه وأهاجيه لا تقبل المناقشة والمفاوضة والمساومة، فكل حرف له ثمن، والقاف ثمنها ليس كثمن الياء، ومات من دون أن يثبت أنه كتب مرة كنوع من الصدقة أو الزكاة، لا يكتب إلاّ إذا قبض سلفاً، أما الوعود بالدفع، فيقابلها بوعود بالكتابة لا أقل ولا أكثر.

صادق جليل العياث الذي كان يحاول اختراع قنبلة من نوع غير مألوف، تبيد الملايين وتجلب له الثروات الطائلة، فانفجر ما كان يحاول اختراعه، وحوّله قطعاً صغيرة من اللحم لا تُرى إلاّ تحت مجهر.

صادق دلال العضاض التي كانت حياتها عواصف متتالية من

الفضائح، فقد اتهمت يوماً بإغراء الزوجات الشريفات بتأجير أجسادهن، واتهمت في يوم آخر بإنشاء شبكة دعارة سرية تضم طالبات ما زلن على مقاعد الدراسة، فنجت من كل اتهام، وحافظت على رأسها مرفوعاً وسمعتها عطرة، وظلت سلعها لا تُنافس وتحظى بالرواج والإعجاب والاحترام، وعندما ماتت ذرفت العيون الدموع السخية، وعوملت ذكراها باحترام وخشوع كأنّها رابعة العدوية.

وتطوع هؤلاء الأصدقاء السبعة بأن يعملوا لدى عزمي الصفاد مستشارين بغير راتب، فرحب بتطوعهم، وكانت نصيحتهم الأولى له هي أن زمان جلوسه في المقابر آن له أن ينتهي حتى لا ينظر إليه على أنه غريب الأطوار ويروّج لشائعات تشكك في سلامة قواه العقلية، وعندما همَّ بالاعتراض والتحدث عن وفائه لأصدقائه أخبروه أنهم سيرافقونه أينما كان.

وهكذا خرج عزمي الصفاد إلى ساحات الحياة اليومية مزوداً بسبعة مستشارين ذوي كفاءة وخبرة ونضج ودهاء، فوثب من نجاح إلى نجاح حتى صار الرجل الأول في بلده مالاً ونفوذاً وجاهاً، يأمر فيطاع، وكان أول أمر من أوامره يحظر الجلوس في المقابر.

٢١

ستون سنة

اشتكت بشيرة لطبيبها من إعياء غير طبيعي وغثيان وصداع، ففحصها مقطب الجبين، وقال لها إنه لن يستطيع تشخيص مرضها بدقة ونجاح إلاّ بعد أن تجرى لها بعض التحاليل الطبية الضرورية، وأحالها إلى أحد المخابر، وحدد لها موعداً ثانياً بعد عدة أيام ريثما تجرى التحاليل المطلوبة، وعندما زارته ثانية، تصفح الطبيب تقرير المخبر الطبي، وقال لها بصوت مرح: «ألف مبروك! أنت حامل، وصحتك ممتازة».

فقالت بشيرة للطبيب بلوم: «الله يرضى عليك يا أخي. بلا مزاح».

فقال لها الطبيب بصوت وقور: «أنا لا أمزح. أنت حامل وفي الشهر الثالث».

فصعقت بشيرة، وقالت للطبيب: «هذا غير ممكن. كيف أحبل وعمري ستون سنة ولم يمسسني رجل منذ وفاة زوجي قبل سنتين؟».

قال الطبيب: «ما حدث غريب فعلاً، ولكن نتائج التحاليل لا تكذب».

قالت بشيرة: «لا بد من أن هناك خطأ..».

فقاطعها الطبيب قائلاً بنبرة من أهين: «لا مكان لأي خطأ صغير أو كبير في المخابر الموثوقة كالمخبر الذي نتعامل معه».

قالت بشيرة: «ماذا أقول لأبنائي وزوجاتهم وبناتي وأزواجهن وأقربائي ومعارفي وجيراني؟ من سيصدقني؟».

قال الطبيب: «الدنيا كلها مصائب. لو حكيت لك عما أرى لأشفقت علي، فاليوم استقبلت زوجين في مقتبل العمر، فإذا نتائج تحاليلهما تكشف أن الزوجة حامل والزوج مصاب بالسرطان ولن يعيش ليشهد زوجته تلد».

فعادت بشيرة إلى بيتها موشكة على الجنون، وتجولت في غرفه لا تدري ما تفعل، وفجأة تحرك الجنين في بطنها، فسارعت إلى الاستلقاء على السرير واضعة راحتيها على بطنها، وأحست أن جنينها يكلمها دون أن يضطر إلى استخدام الكلمات والصوت، وكل ما يريده يقتحم شرايينها ويصبح فوراً هو ما ترغب فيه وتتوق إليه، وما يريده الآن هو الهرب من الفضائح والقيل والقال والشائعات المسمومة، ويريد نوماً طويلاً مدهوشاً من صبرها ستين سنة، ولكنها لم تستطع النوم، فابتلعت كل ما لديها من حبوب منومة وحبوب مسكنة للألم.

سأستريح من المرض وأوجاعه.

ستستريحين من الركض من طبيب أحمق إلى طبيب مجنون وإنفاق الكثير من المال على ما لا يجدي.

سأستريح من صعود الدرج إلى بيتي في الطابق الرابع.

ستستريحين من تنظيف البيت.

سأستريح من طهو الطعام.

ستستريحين من مضغ الطعام وابتلاعه.

سأستريح من التحدث إلى الناس.

ستستريحين من التحدث مع نفسك.

سأستريح من الشعور بالوحدة والوحشة.

ستستريحين من الاشتياق إلى بنات وأبناء يعيشون في بيوت بعيدة عنك، ولا يرونك إلاّ في المناسبات.

وعندما ابتدأت بشيرة تستسلم للنوم خيِّل إليها أنها تسمع جنينها يضحك شامتاً، فحاولت التكلم، ولكن جنينها لم يكن راغباً في التكلم، فأرغمها على إغماض عينيها إغماضة لا نهاية لها.

٢٢

الشقراء!

تخلى مهدي القتّام عن الثياب السود التي كان يرتديها حزناً على شريكة حياته التي ماتت فجأة في ريعان الشباب، وأعطاها إلى أول متسول مدّ كفه مستجدياً، وتزوج ثانية امرأة من غير حارته، ومختلفة عن نسائها، عيناها زرقاوان ولحمها ناصع البياض وشعرها أشقر، فثار في الحارة بركان من القيل والقال حتى تجرأ بعض الرجال على معاتبة مهدي القتّام علانية على ما بدر منه من تسرع غير محمود لا يحترم الموت والموتى، فاكتسى وجهه بالاشمئزاز، وقال للرجال بصوت مؤنب مزدر: «يا جهلة! لو عرفتم المرأة الشقراء التي تزوجتها لما قلتم لي مثل هذا الكلام السخيف الغبي».

فصعق الرجال وخرسوا، فكل النساء اللواتي عرفوهن كنّ سمراوات أو بيضاوات بشعر أسود، ولم يعرفوا طوال حياتهم امرأة شقراء، وتساءلوا فيما بينهم: «هل تملك المرأة الشقراء ما لا تملكه المرأة السمراء؟».

ولم يكن في حارتهم أية امرأة شقراء غير زوجة مهدي القتّام،

فأصبح الوصول إليها الطريق الوحيد المؤدي إلى زيادة معارفهم عن النساء وتلافي ذلك النقصان المخزي في خبراتهم، ولكن فؤاد المجمر نصحهم ألا يتعبوا في ما لا يجدي لأن الشقراء ستقع قريباً في غرامه وتهوي على رأسها، فسأله الرجال بفضول عن الوسائل التي يزمع استخدامها، فأبى الإفصاح عنها مذكّراً أنّ الانتصار في المعارك الغرامية لا يختلف عن الانتصار في المعارك الحربية، وكل من تفتضح خططه هو مهزوم لا محالة، فحار الرجال، ففؤاد المجمر ليس وسيماً، وليس غنياً، وليس ذكياً، وليس متعلماً، وليس ذا تجارب، وحين يتحدث يغري سامعيه بالتثاؤب والنوم، وجسمه ليس جسم رجل ولا جسم امرأة، ولكنه تكلم عن مستقبل علاقته بالشقراء بثقة لا حدود لها، ولا بدّ لها من مسوّغ، ولا دخان بغير نار، وانتظروا بلهفة ما سيحدث، ولم يبالوا بزوجاتهم اللواتي صبغن شعرهن بلون أصفر، فازددن قباحة وسماجة، ولم تمض سوى أيام حتى دخل المقهى فؤاد المجمر برأس ملفوف بالضمادات الطبية البيض، وأخبر الرجال المتحلقين حوله أن الشقراء أرادت مداعبته والتعبير عن حبها له بينما كان يحوص حول بيتها، فرمت فوقه من شباكها العلوي آنية ثقيلة ملأى بالتراب والحصى والورد الأحمر، فلم تخطىء في التسديد، وكانت النتائج رأساً دامياً ركض مالكه إلى أقرب مستشفى طالباً الغوث العاجل من أطبائه وممرضاته، فضحك جميل السطل ضحكة ساخرة، وقال لفؤاد: «ظننا الباشا باشا».

فقال له فؤاد متسائلاً بعصبية: «ماذا تعني؟».

قال جميل السطل: «أعني أن الشقراء لن تحب واحداً من أمثالك».

قال فؤاد مستثاراً مهاناً: «هل تعني أنها ستحب واحداً من أمثالك لا من أمثالي؟».

فقال جميل لفؤاد متوعداً: «سترى.. والأيام بيننا».

فانتظر الرجال بلهفة ما سيحدث متسائلين عمن سينتصر.. أهو جميل السطل أم فؤاد المجمر؟

وجاء جميل السطل في اليوم التالي إلى المقهى لا يكاد يستطيع المشي ويئن متوجعاً، وما إن جلس على كرسي حتى بادر إلى خلع حذائه، فإذا قدماه حمراوان متورمتان تنزفان دماً، وقال إنه رأى الشقراء تمشي في الحارة، وتحرش بها بأدب شديد فخجلت من أن تعبر عن هيامها به وتتجاوب مع عواطفه علانية أمام الناس، واشتكت لشرطي كان ماراً مصادفة، فجرّه إلى المخفر، وطُرح هناك أرضاً، وضُرب بالعصا على باطن القدمين حتى صاح مولولاً معلناً التوبة عن التحرش بالنساء، فسأله صخر العباس: «والشقراء؟ أنسيتها؟».

قال جميل السطل: «قمت بما عليّ وتحرشت بها، وأنتظر الآن أن تردّ عليّ وتتحرش بي. الكرة الآن في ملعبها».

فقال له صخر متسائلاً: «وإذا ظلت خجولة ولم تتحرش بك، فهل مسموح لنا أن نتحرش بها؟».

قال جميل مخاطباً الرجال محملقاً إلى عيونهم محاولاً سبر أغوارهم: «وهل تنوون التحرش بها؟».

فقال صخر: «أعوذ بالله! أتظن أننا مثلك أدنياء لا نحترم أعراض النساء الشريفات؟».

وفي إحدى الليالي، تسلل أربعة رجال ملثمين إلى بيت مهدي

القتّام، فوجدوه نائماً على سريره لصق زوجته الشقراء، فأوثقوه بالحبال، فبكى، وتوسل إليهم ألاّ يقتلوه، وأرشدهم إلى المكان الذي يخبىء فيه أمواله من دون أن يسألوه عنها، واقتربوا من سرير الزوجة، فحاولت مقاومتهم، فصاح بها الزوج مستنكراً سلوكها غير المجامل، فهؤلاء الرجال هم ضيوفه، والضيف يكرم ويبالغ في إكرامه، فخلعت الشقراء كل ثيابها بحركات نزقة، وارتمت على السرير متحدية، فحكم عليها الرجال فوراً أنها مضيفة ينقصها التهذيب إذ لم تقل لهم «تفضلوا» أو «شرّفوا»، ورأوها شبيهة بضفدعة مقلوبة على ظهرها تطفو على سطح الماء، ولا تختلف عنها إلاّ بالحجم، ولكن الرغبة في زيادة معارفهم بالنساء أعمت أبصارهم وقضت على كل تردد، فانقضوا عليها متزاحمين بصخب، وأدى زحامهم إلى وقوع شعرها الأشقر على الأرض، فإذا هو مستعار، وشعرها الأصلي أسود وقصير وخشن ومتجعد، ولكن ما حدث لم يخفف إقبالهم عليها، ولم يبتعدوا عنها إلاّ بعد وقت طويل وقصير في آن واحد، وتبادلوا النظرات المفعمة بالخيبة، وعادوا إلى زوجاتهم بشوق كأنهم غابوا عنهن أعواماً قضوها في صحارى جرداء لا حيّ فيها، ولكنهم لم يستطيعوا في الحارة التفوه بكلمة واحدة عن الشعر الأشقر المستعار، ومهدي القتّام كتم ما حدث له ولأمواله وزوجته، وبقيت الشقراء مشتهاة ومطلوبة ولا تنال.

٢٣

الأغصان

ذهب بلال الدندشي إلى مدرسته كعادته في صباح كل يوم، ووصل إليها متأخراً، ودخلها وهو يرتعد خوفاً من معلمه وتوبيخه الفظّ الساخر، ولكنه وجد التلاميذ نائمين والمعلمين نائمين، فحاول إيقاظهم، فلم يستيقظ أحد، وسئم الجلوس وحده، فتثاءب ونام، ورأى في أثناء نومه أنه نائم في مدرسة تلاميذها نائمون نوماً عميقاً غير مبالين بصيحات معلميهم الغاضبة، وأيقظته أمّه من نومه، وحثته على الإسراع حتّى لا يتأخر عن مدرسته، فهرول قاصداً مدرسته ليجد معلميها مقتولين وتلاميذها يلعبون مرحين، ولم يلعب معهم لأن أمّه أيقظته من نومه ليذهب إلى مدرسته، فارتدى ثيابه على عجل، وغادر البيت من دون أن يأكل، وهرع إلى مدرسته وجلس في صفه بين التلاميذ متأهباً لما سيحدث، ودخل المعلم الصف بوجه عابس وعينين صارمتين، فحدّق إليه التلاميذ الصغار بنظرات ملأى بالكراهية، وتهامسوا فيما بينهم بكلمات مبهمة، فصاح بهم غاضباً: «اخرسوا».

فصمت التلاميذ فوراً، ووضع المعلم محفظته المهترئة على سطح

طاولته، وفتحها، وأخرج منها رزمة من الأوراق لوّح بها قائلاً للتلاميذ: «أتعرفون ما هذه الأوراق؟ هذه أجوبتكم المكتوبة رداً على سؤالي عن المهنة التي ستختارونها حين تصيرون رجالاً».

واقترب المعلم من سلة المهملات، ولوّح بالأوراق ثانية، وقال للتلاميذ: «هذه أجوبة لا تستحق حتى الصفر».

ورمى الأوراق في سلة المهملات بحركة المتخلص من قمامة مقززة، وقال لتلاميذه: «علّمتكم طوال أيّام النشيد الوطني الرسمي لترددوه في الحفلة التي ستقام بمناسبة انتهاء العام المدرسي، وسأمتحن اليوم قدرتكم على الحفظ، والويل لمن يخفق».

فتهامس التلاميذ متذمرين، فزعق بهم معلمهم بصوت حانق: «اخرسوا».

فسكت التلاميذ، وقال لهم معلمهم: «سأعدّ من الرقم واحد إلى الرقم ثلاثة، وحين أصل إلى الرقم ثلاثة تبادرون إلى ترديد النشيد بصوت واحد. هيّا استعدوا. واحد.. اثنان.. ثلاثة».

فتبادل التلاميذ النظرات الغامضة، وشرعوا في إنشاد مقطع من أغنية غرامية معروفة بأصوات عالية حماسيّة محافظين على اللحن الأصلي للنشيد الوطني، فصاح بهم معلمهم: «اخرسوا».

فاندفع التلاميذ نحوه كطلق ناري، وضربوه بمساطرهم وكتبهم ودفاترهم وأقدامهم طالبين إليه أن يخرس، فبوغت المعلم بما حدث، وصاح غاضباً مستنجداً، فلم يأتِ أحد من المدرسة لنجدته، وترنح وارتمى على الأرض بعد أن أصيبت عظام ساقيه بضربات موجعة، وحاول أن يقاوم ويهدد ويتوعد ويصبر، ولكن ألماً طاغياً أجبره على البكاء والتوسل إليهم أن يكفوا عن ضربه، فلم يبالوا بتوسله، ولم يتوقفوا عن ضربه إلاّ عندما أذعن ولم يعد يصدر عنه أيّ صوت،

فأوثقوه بحبال أعدوها سلفاً، وأمروه بترديد النشيد الوطني، فبادر إلى إطاعة أمرهم، وردد النشيد الوطني بصوت متحشرج مرتجف، فسدّوا آذانهم بأصابعهم متأففين، وانفصل بلال الدندشي عن التلاميذ، ووقف قبالتهم مقلداً وقفة معلمهم، وصاح بهم بلهجة مرحة آمرة: «واحد.. اثنان.. ثلاثة».

فتعالت أصوات التلاميذ تردد النشيد الوطني متآلفة متناسقة، وتوحدت في صوت واحد خرج من نوافذ المدرسة ليتحوّل موجاً.

٢٤

بيت آخر

تناسى خالد الحلاّب وقوفه المهين صباحاً أمام القاضي الصارم الذي حكم عليه بإخلاء البيت المستأجر الذي يسكنه منذ أن كان طفلاً، وأنصت بخشوع وغبطة لمن كان يقول بعد صلاة الظهر إن الجنة تحت أقدام الأمهات، وعاد إلى البيت، وأحضر معولاً ورفشاً، وشرع في حفر الأرض تحت قدمي أمّه القاعدة على كرسيّ خشبيّ في باحة البيت لا يتوقف أنينها المتوجع، واستمر في الحفر طوال ساعات، ولم يعثر إلاّ على تراب رطب، فرمى المعول والرفش مغتاظاً، وساعد أمّه على احتساء شاي ممزوج بالسكر والكثير من مسحوق حبوب منوّمة، فنامت أمّه بعد دقائق، فبادر إلى وضع وسادتين في قاع الحفرة، وحمل أمّه، ومددها على البساط ثم جلس على كرسيها يلهث متعباً، واحتسى ما تبقى من شايها، واستلقى في الحفرة لصق أمّه، وأمسك بيدها الباردة، وأغمض عينيه راجياً ألاّ يتأخر ليل التراب.

٢٥

الشركة

كانت شهيرة تمشي في حارتها عابسة الوجه يتبعها زوجها مصطفى محاولاً اللحاق بها متذمراً من سرعة غير ضرورية، وما إن دخلا بيتهما حتّى صاحت به غاضبة: «أريد الطلاق وفوراً».

فقال لها مصطفى متعجباً: «ماذا حدث؟ خير؟».

قالت شهيرة: «تسأل كأنك بريء ولم أضبطك مع أختي. إخْ! كنتما كالحيوانات. أهذه هي الدروس الخاصة في الكيمياء والجبر؟».

قال مصطفى: «أنا بريء، وأختك هي التي تحرشت بي، ولم أحاول صدّها وإهانتها لأنّ إهانة بنت صبية في أول شبابها من أكبر الأخطاء التربوية، وتسبب لها عقداً نفسية لها أوّل وليس لها آخر. أما آن لك أن تتبدلي؟ أنت دائماً أنانية لا تفكرين إلاّ بنفسك، ولا تفكرين بأختك ومستقبلها».

حارت شهيرة، ولاذت بالصمت كأنّها تفكر ثم قالت لمصطفى فجأة: «لا تكذب، وقل لي الحقيقة. من منّا أظرف.. أنا أم أختي؟».

فقال مصطفى: «ما هذا السؤال الغبيّ؟ السماء لا يجوز لها أن تقارن بالأرض، فأختك تتوهم أنّها رشيقة كالغزلان، ولا تنتبه إلى أن عظمها أكثر من لحمها، وأنا كما تعرفيني كاره للعظم، محبّ للحم».

فابتسمت شهيرة، وقالت وهي تتمطى: «لا أصدق كلامك».

فقال لها مصطفى: «انتظري قليلاً حتى يزول الخوف الذي شعرت به عندما ضبطتني أعطي أختك ما ينقصها من دروس في الكيمياء والجبر».

وانتظرت شهيرة بصبر، وعاد غضبها أشدّ مما كان عندما ضبطته بعد أيام يخونها مع خادمتها، فطردتها قائلة لها: «سأكسر رجلك إذا اقتربت من هذا البيت».

وصاحت بمصطفى: «لو كانت الخادمة جميلة وصبية لعذرتك، ولكنها قبيحة وأكبر من أمي».

فقال مصطفى: «المجبر على أكل البقلاوة كل يوم يشتهي الفلافل».

قالت شهيرة: «أتعني أني بقلاوة والخادمة فلافل؟».

قال مصطفى: «أعوذ باللّه! بل هي أقل من الفلافل».

قالت شهيرة: «ومع ذلك ضبطتك تأكل الفلافل كأنك لم تأكل منذ ألف سنة».

قال مصطفى: «هل أحلف لك أني تبت ولن آكل الفلافل حتى أموت؟».

قالت شهيرة: «بل أريد أن تحلف لي أنك لن تخونني».

قال مصطفى: «لن أحلف لأني في كل سنة أحتاج إلى أن أخونك مرة واحدة على الأقل حتى أعرف مدى حبي لك».

فحملقت شهيرة إليه غير مصدقة ما تسمعه، فقال لها بثقة: «كلما خنتك شعرت بأنّي لا أحب سواك، ولو لم أخنك لما عرفت هذا الشعور».

قالت شهيرة: «هل تريد إقناعي بأنّك تخونني لأنّك تحبني؟».

قال مصطفى: «صححي كلامك من فضلك. أنا أخونك حتى أعرف كم أنا أحبك، فالطويل لا يعرف أنّه طويل إلاّ عندما يقف وسط أناس قصار القامة».

قالت شهيرة: «أتظن أنّي بلهاء حتى أقتنع بكلامك السخيف؟».

قال مصطفى: «لا تكوني ظالمة، فأنت لست بلهاء وكلامي ليس سخيفاً».

فقالت له شهيرة: «ألا تلاحظ أنّ حبك لي مجرد كلام فقط؟».

فأقسم لها أنّ الفلافل عكرت مزاجه وأفسدت شهيته وعطبت معدته، ويحتاج إلى بعض الوقت لإصلاح ما تلف، فانتظرته شهيرة بصبر، وطال انتظارها.

وتنبه مصطفى يوماً إلى أن شهيرة تغيّرت وابتدأت تخونه مع شبان تختارهم بعناية، فانقض عليها انقضاض القط الشرس على فأر ضعيف، وواجهها بالوقائع الموثقة، فاحمر وجهها قليلاً، ولم تنكر، وردت بأنها تشفق عليهم لأن أي إخفاق في بداية حياتهم سيدمر مستقبلهم، وهم يحتاجون إلى من يعلّمهم ويقودهم، وضبطها بعد حين تخونه مع رجال من مختلف المهن والفئات الاجتماعية كأنها باحثة تعدّ دراسة شاملة عن خفايا مجتمع مجهول، فرمقته بنظرات ملأى بالعتاب المرّ، وأقسمت أنها تفعل ما تفعل من أجل أن تختبر حبها له، وسألته: «إذا عرفتك وحدك ولم أعرف أي رجل آخر، فكيف سأعلم أنّك أحسن الرجال ولست مغشوشة؟».

ولم يتجرأ مصطفى على تطليقها لأنّ أباها غني وغير بخيل، واستمرا في العيش معاً زوجاً وزوجة يحاول كل منهما يومياً أن يثبت حبه للآخر.

٢٦

الأدغال

جرت في المقهى مباراة صاخبة في لعبة الكونكان بين معروف السماع ورشيد القليل، كثر مشاهدوها وتطايرت في أجوائها التعليقات الحماسية الساخرة المتحدية، وانتهت بهزيمة رشيد، فتباهى معروف بانتصاره، ونصح خصمه بلهجة ممازحة بمواصلة التدرب ليل نهار قبل اللعب مع أساتذة مثله، فاغتاظ رشيد، ومزق أوراق اللعب، وقذف بها إلى الأرض، ونصح معروف السماع بصوت مرتفع سمعه كل رواد المقهى بأن يخجل قليلاً ولا يتمادى في التباهي أمام رجال يعرفون جسم أخته أكثر مما تعرفه أمها، فأحنى معروف رأسه، ولم يفه بكلمة، وأنصت لأصوات هامسة يسمعها عادة وحده.

همس الأرنب: «اهرب تنج».

همست النعامة: «دفن الرأس اليوم يليه دفن بقية الجسم غداً».

همس الضبع: «من لا يأكل يؤكل».

همست الحية: «ملمسي ناعم، والموت في أنيابي».

همس الذئب: «إذا لم تكن ذئباً أكلتك الخراف».

همس الغراب: «لكم أنا مشتاق إلى النعيب!».

ولم يتكلم الأسد، واكتفى بالزئير الحانق متأهباً للانقضاض على فريسته، ونهض معروف واقفاً كأنّه يهمّ بمغادرة المقهى، ولطم فجأة رشيداً لطمتين على خده الأيمن وخده الأيسر، فبوغت رشيد وبهت إذ كان يتوقع شتائم متبادلة يليها تماسك بالأيدي يليه تدخل الوسطاء، واستل معروف سكينه بحركة سريعة، وطعن رشيداً في صدره وعنقه ثلاث طعنات، فصاح رشيد: «أخ! قتلتني!».

وابتعد الأسد عن فريسته ملطخ الفم بالدماء، وغادر معروف المقهى هارباً ويده لا تزال ممسكة بالسكين التي تقطر دماً، وتنبه وهو يركض بأقصى سرعة إلى أنه وحيد أبويه، لا أخت له ولا إخوة.

٢٧

يد الكذب

كان موفق النمس يحرص كلّ صيف على أن يدهن الحائط الخارجي لبيته بطلاء ناصع البياض، فبوغت أنّ يداً مجهولة كتبت على الحائط بدهان أسود وبخطّ كبير تشكيكاً في إخلاص زوجته له، فجنّ جنونه، وبادر فوراً إلى شراء دهان أصفر اللون، وكتب به تحت ما كتبته اليد المجهولة وبخطّ أكبر منوهاً بأنّ زوجته أشرف امرأة على وجه الأرض، فإذا اليد المجهولة تردّ عليه زاعمة أن زوجته القبيحة تفعل ما يحلو لها وما لا يعلمه حين يكون في عمله غائباً عن البيت، فاستاء موفق النمس من هذه الأباطيل، وردّ عليها بأنّ زوجته الجميلة حين يذهب إلى عمله تنهمك في تنظيف البيت وطهو الطعام وانتظار عودته على أحرّ من الجمر، فلم ترتدع اليد المجهولة، وتحدت موفق النمس مدّعية أن اللون الأحمر هو اللون المفضل للثياب الداخلية لزوجته، فضحك موفق النمس من غباوة اليد المجهولة، وكتب على حائطه الأبيض بالدهان الأصفر وبأكبر خطّ أنّ اللون المفضل للثياب الداخلية لزوجته هو اللون الأسود فقط، فخرست اليد المجهولة وعجزت عن الردّ.

٢٨

الشهادة

تباهت بهية أمام نساء حارتها بحفاظها على شرفها وشرف الحارة التي ولدت فيها، وحكت ما جرى لها أمس عندما كانت تتنزه في أحد البساتين القريبة، فالرجل المجهول الذي اغتصبها شهر سكيناً تذبح جملاً، وأمرها بأن تخلع كل ثيابها مهدداً بقتلها إذا عصت أمره، فخلعت ثيابها، ولكنها لم تخلع جواربها متحدية أمر الرجل وسكينه، فشهقت نساء الحارة معجبات بها، وانتشرن في البساتين عازمات على ألاّ يخلعن الجوارب.

٢٩

الساعة الثامنة

في الساعة الثانية عشرة ظهراً، كانت حنان الملقي تمشي في الشوارع مشياً أشبه بالركض غير مبالية بنظرات الرجال المبهورة بجمالها، وتتأفف مزدريةً بعض شبّان تحرشوا بها بعبارات غزل وإطراء، ووصفوها بأنها مهر يحتاج إلى مروّض، ولمّا وصلت إلى إحدى الحدائق العامة، سارعت إلى دخولها، وجلست على أحد مقاعدها وهي تتنهد بارتياح، فجاء إليها شاب في الخامسة والعشرين من عمره، وجلس بجوارها محيياً، وقال لها إنه طاف الحديقة أكثر من عشر مرات باحثاً عنها، وتحادثا عن الحرّ الشديد والمسلسلات التلفزيونية والورد في الحديقة والبطّ الذي يسبح في حوض كبير من الماء الأزرق، وقال لها فجأة إنّه يحبّها، وأحبّها منذ أن رآها أوّل مرة، فأطرقت برأسها ناظرة إلى الأرض، واحمرّ وجهها واصفرّ، وارتجفت يداها، فقال لها إنه يتمنى الزواج منها إذا وافقت، وناشدها أن تتخلى عن صمتها وتتكلّم وتقول أيّ كلام، فقالت له باضطراب إنّها لا تستطيع الزواج لأنها خصصت حياتها لخدمة أبويها المريضين اللذين ليس لهما في هذه الدنيا من يرعاهما غيرها، ونظرت إلى ساعة

معصمها، وهبّت واقفة مذعورة، وقالت إنها بعد دقائق يجب أن تكون في البيت حتّى تعطي أمّها دواءها. وخرجا معاً من الحديقة، وأوقفت حنان سيارة أجرة، فألحّ الشاب عليها أن تحدد له موعداً للقاء ثان، فوقفت حائرة مترددة، وقبلت أن تلقاه ثانية بعد خمسة أيام، وركبت في السيارة، وذكرت للسائق العنوان الذي تقصده، ونظرت إلى ساعة معصمها بقلق. ولمّا وقفت السيارة حيث أرادت، دفعت للسائق أجرته، ونزلت من السيارة ودخلت إحدى البنايات، وصعدت الدرج إلى الطابق الثاني، وفي الساعة الواحدة وعشر دقائق، ضغطت إصبعها زرّ جرس باب أحد البيوت، ففُتح الباب حالاً كأنّ من فتحه كان ينتظر خلف الباب، وأطلّ منه رجل في الثلاثين من عمره، وقال لها إنها تأخرت وظنّ أنّها لن تأتي، فلم تردّ عليه، ودخلت البيت، وشرعت تخلع ثيابها قبل أن ينتهي من إغلاق الباب، ولمّا صارت الساعة الثانية إلاّ عشر دقائق، ارتدت ثيابها على عجل، وقالت للرجل إنّها يجب أن تكون في بيتها حوالى الساعة الثانية قبل أن يرجع زوجها الغيّور من عمله، وغادرت مسرعة.

وفي الساعة الثانية وسبع دقائق، دخلت حنان مقهى يرتاده الرجال والنساء، والتقت شاباً يكبرها بعدة أعوام، فأمسك الشابّ يدها، ونظر إليها بوله، وحدّثها طوال نصف ساعة عمّا يريد أن يصبح بعد أن يتخرج من الجامعة، فأصغت إليه باهتمام وإعجاب، وقالت له إنّها مضطرة إلى تركه بسبب موعد لها مع أحد الأطباء، فسألها الشاب عمّا تشكو منه، فقالت له إنّ التشخيص الأولي للأطباء يشير إلى أنّها مصابة بالسرطان، وقد تنجو أو لا تنجو.

وفي الساعة الثالثة، ذهبت حنان إلى إحدى دور السينما، والتقت رجلاً في الخمسين من عمره، ودخلا معاً دار السينما، وأطفئت

الأنوار، وابتدأ عرض الفيلم السينمائي، وحاول الرجل إمساك يدها، فزعلت وخرجت من دار السينما غاضبة، ولحقها الرجل محاولاً الاعتذار، فقالت الفتاة له: «من تظنني حتّى تتجرأ على إمساك يدي؟».

فقال الرجل إنه آسف جداً، فلم تقبل أسفه، وقال لها إنه لم يتزوج بعد لأنّه لم يلتق من قبل فتاة بمثل أخلاقها، فقالت له إنّها تأخرت عن عملها كممرضة في المستشفى، وتركته وهي ترتجف حنقاً.

وفي الساعة الخامسة، دخلت حنان محلاً صغيراً لبيع الثياب النسائية، واختارت ثوباً أصفر اللون، وجربته أمام المرآة في المكان المحجوب عن الأنظار، ونادت صاحب المحل، وطلبت منه أن يساعدها، فإذا مساعدته تطول وتجعلهما يتصببان عرقاً غزيراً، وغادرت المحل من غير أن تشتري الثوب الذي لم يعجبها.

وفي الساعة السادسة، ذهبت حنان إلى مطعم حيث كان ينتظرها رجل في الستين من عمره، وتناولا الطعام صامتين حتّى قال لها الرجل المسنّ فجأة وهو يحدّق إلى شفتيها: «أنت دائماً جميلة، ولكنك اليوم أجمل، ولو كنت أملك مليون دولار لدفعته لك ثمناً لقبلة واحدة أخوية» .

فقالت حنان: «القبلة دائماً مجاناً لأنّي أعتبرها مجرد دعاية ونوعاً من الزكاة والصدقة، أمّا ما هو أكثر من القبلة، فلا يقدر أغنى الرجال على دفع ثمنه».

قال الرجل المسنّ: «أنا مسكين وحالي عدم، وسأكتفي بالمجاني».

قالت حنان: «أشفقت عليك، ومثلك يجب أن يمنح له كلّ شيء مجاناً».

قال الرجل المسنّ: «متى وأين؟».

ـ : «الآن وهنا، وخير البرّ عاجله».

ـ : «والناس؟».

ـ : «إذن على درج إحدى البنايات القريبة».

ـ : «وماذا سنقول إذا ضُبطنا؟».

ـ : «سأكذب وأقول إنّك أبي».

وفي الساعة السابعة مساء، دخلت حنان عيادة طبيب للأسنان بخطى متعجلة، وطلبت من سكرتيرته موعداً طارئاً لأنّ أوجاع أسنانها باتت لا تطاق ولا تحتمل، فنظرت السكرتيرة بقلق إلى الذين كانوا يجلسون منتظرين أدوارهم، وطلبت منها بصوت خفيض الانتظار بضع دقائق ثم أدخلتها غرفة طبيب الأسنان، فبادرت حنان إلى الجلوس على كرسي المرضى، ودنا الطبيب منها لفحصها، فأغمضت عينيها ولم تفتح فمها، وعندما خرجت من غرفة طبيب الأسنان، دفعت للسكرتيرة الأجرة المحددة، وشكرتها محمرة الوجه لأنّها ساعدتها على التخلص من أوجاع لا تطاق ولا تحتمل.

وفي الساعة السابعة والنصف، زارت حنان إحدى صديقاتها في بيتها، وقالت إنّها ضجرة، وليس لديها في حياتها ما تفعله، فنددت صديقتها بالضجر، وتحدثت مطوّلاً عن مساوئه.

وفي الساعة الثامنة مساء، عادت حنان إلى بيتها، فاستقبلها أبوها صارم الوجه، وسألها: «أين كنت؟ ولماذا تأخرت ثلاثين دقيقة؟».

فسارعت الأم إلى التدخل، وقالت للأب بصوت موبخ: «أف! ألا ترى البنت توشك أن تقع أرضاً من كثرة الدراسة في الجامعة طوال النهار؟».

وقصدت حنان غرفتها بادية الإعياء، فقال الأب للأمّ: «الحمد لله الذي رزقنا بنتاً مجتهدة تحبّ الدراسة».
فأيّدته الأمّ، وحمدت الله بصوت خاشع.

٣٠

الحطام

تذمرت المطرقة الجاثمة فوق السندان الذي قال لها: «اسكتي واستريحي وأريحي».

قالت المطرقة: «لن أسكت لأنّي مللت هذه الحياة وهذه الدكان إلى حدّ أنّي أرغب في أن تهدم».

قال السندان: «ما تشعرين به وما ترغبين فيه حقّ من حقوقك، ولا أحد يمنعك من ممارسته إلاّ كسلك».

وأتى عبد المجيد الحداد إلى دكانه في الصباح المبكر، فبوغت بكلّ ما فيه محطماً ما عدا مطرقته وسندانه، فأوشك أن يبكي، وقعد على كرسيّ خشبي قصير القوائم حزيناً واجماً يتأمل ما حوله بنظرات زائغة، فقالت المطرقة للسندان: «مللت غباوة هذا الحداد الذي لا يملّ العمل على الرغم من أن بؤسه يزداد كلما ازداد عمله».

قال السندان: «مللك من هذا الحداد الذي لا يملّ حقّ مشروع من حقوقك».

وتلطخت المطرقة والسندان بدم عبد المجيد الحداد، وابتنكر

السندان ما حدث، وأكّد لرجال الشرطة أنّ دوره لم يكن سوى دور المتفرج، ولكنّهم لم يبالوا بأقواله، ولم يقبضوا على القاتل.

٣١

امرأة جميلة

كانت ليلى المجهولة الكنية امرأة جميلة مطلّقة اغتصبها مدير الشركة التي تعمل فيها، واغتصبها سائق سيارة الأجرة الذي أوصلها إلى مخفر الشرطة، واغتصبها الشرطي الذي استمع لأقوالها، واغتصبها الطبيب الذي فحصها بغية التأكد من أن الاغتصاب ليس مزاعم كاذبة، واغتصبها القاضي الذي روت له بالتفصيل كيف اغتصبت ثلاث مرات، ولكنّه لم يغتصبها في قاعة المحكمة إنما اغتصبها في مكتبه بعد أن سألها بعض الأسئلة التي لا يليق أن تسأل علانية، واغتصبها الصحافي بعد أن دوّن على الورق كلّ ما تفوهت به، فأحست ليلى أنّها أهينت إهانة ينبغي لها أن تواجه بالثأر، وأنبأت الموت بما جرى لها، فلم يغتصبها، واكتفى بأن غمر لحمها بثلج جمّد الدماء في عروقها.

٣٢

الأخرس

غادر وليد تيمور عيادة طبيب الأسنان مخدّر الشفتين واللثة واللسان، ومشى على رصيف شارع بخطى متعجلة، فقال له الرصيف متسائلاً بسخرية: «هل تتدرب لتشارك في سباق للركض أم أنك تأخرت عن امرأة جميلة تنتظرك؟».

وقالت له إحدى أشجار الشارع: «لو استندت إليَّ لحظة لاصفرت أوراقي وتساقطت يابسة».

فلم يبالِ وليد بهما، وتابع سيره السريع، ومرَّ بالقرب من سيارة سوداء اللون تقف بمحاذاة الرصيف، فقالت له السيارة: «صباح الخير».

فلم يردّ وليد على تلك التحية الغريبة التي توجّه إليه بعد أفول الشمس، وأخرج من جيبه قلماً وقطعة ورق ليسجل رقم لوحة السيارة، فقال له القلم: «أنت عابس الوجه بلا مسوّغ، فكل شيء بخير وعلى ما يرام».

فحاول وليد أن يمسح فمه بمنديل، فقال له المنديل: «لا تكن عصبياً

إلى هذا الحد، فأصابعك ترتعش كأنّك ستشنق بعد قليل في ساحة عامة ليس فيها أي متفرج».

فنظر وليد إلى السماء متصنعاً الاستنجاد بها بعد نفاد الصبر، فرأى السماء بطناً أسود ضخماً طعنته سكين، وأصابته بجرح يمتد من الشرق إلى الغرب، ويتساقط منه قطن غزير ناصع البياض، يمسكه الناس فيتحوّل ماء، ويمسكه وليد فيظل قطناً ناعماً يغري بأن يُجمع منه ما يكفي لوسادة، وجرب وليد الوسادة الجديدة عندما أتى منتصف الليل، وما إن حطّ رأسه عليها حتى سمع هدير أمواج بحر ممتزجاً بغناء بعيد لأطفال ونساء، فأغمض عينيه ونام نوماً آمناً طويلاً، ورأى في أثناء نومه الناس يتعذبون صامتين وكل ما حولهم يثرثر.

٣٣

سارقو السجاد

قبض رجال الشرطة على عصابة من اللصوص تتألف من ثلاثة أخوة، أكبرهم لا يتجاوز عمره العاشرة، وقد اعترفوا بأنّهم يعتزمون سرقة ما في مسجد الحارة من سجّاد لاستخدامه في غرفهم، واتضح كذبهم عندما فتشت غرفهم، فإذا هي صغيرة ضيقة لا تكاد تتسع لفراش واحد بينما السجّاد المزمع سرقته بحجم لا يصلح إلاّ للقصور الفسيحة، وقد أُخضعوا لاستجواب صارم، فاضطروا إلى الاعتراف بما كانوا ينوون فعله أيضاً: سينبشون القبور، ويقتلعون الشجر، ويلطخون حيطان البيوت البيض باللون الأسود، وينثرون القمامة على أرض الحارة، ويسرقون كل الثياب الداخلية النسائية، ويحرقون بيتهم وبيوت حارتهم بأسرها، ويتفرجون بفرح وتشف على البيوت تتهاوى أكواماً من الرماد.

ولما علم أبوهم بما كانوا يعتزمون القيام به، غضب واستنكر وتبرأ منهم، ولكنه أمام أمهم اغرورقت عيناه بالدموع متباهياً بهم.

٣٤

الجنة

أُمر حسن جبران بأن يصلي عشر مرات في اليوم الواحد، فبادر إلى الإطاعة مصليّاً إحدى عشرة مرة على الرغم من أنّه تعبان يطلب الراحة والنوم الطويل.

وأُمر حسن جبران بأن يصوم شهرين كلّ سنة، فصام شهرين وسبعة أيّام وهو الهزيل الخائر القوى.

وأُمر حسن جبران بأن ينتخب أغبى رجل ممثلاً له وناطقاً باسمه، فسارع إلى تنفيذ الأمر فخوراً مغتبطاً.

وأُمر حسن جبران بإطاعة أولي الأمر، فأطاعهم، وأطاع خدمهم طاعة أقنعتهم بأنّهم من الخالقين.

وأُمر حسن جبران بالتبرع بما يملك للمعوزين والمساكين، فبادر إلى الإطاعة، ومشى في الشوارع عارياً غير مكترث لصيحات الهزء والاستنكار.

ولمّا بلغ حسن جبران الخامسة والستين من عمره كوفيء بإعفائه من الصلاة والصوم والانتخاب، ونُقل إلى الصحراء ليصبح جملاً تطارده النياق.

٣٥

رجل كان يستغيث

سمعت فدوى إبراهيم صوت رجل يردد اسمها كأنّه يطلب الغوث منها، ولم تكن نائمة أو مغمضة العينين تحلم بل كانت تزور إحدى صديقاتها وتنصت لثرثرتها عن خطيبها وحماقاته وطيشه، ولم يبد على صديقتها أنّها سمعت ما سمعته.

واستغربت فدوى أن يعتقد أحد في العالم أنها قادرة على أن تغيث، وسمعت ثانية صوت الرجل نفسه يردد اسمها مستغيثاً وهي تمشط شعر جدّتها، وسمعت مرة ثالثة صوت الرجل عندما كانت تمشي في حديقة عامة، وسمعت مرة رابعة صوت الرجل بينما كانت أمّها تتكلم محذّرة من عبث الرجال المخادعين، وصحت من نومها في ليال كثيرة على صوت الرجل المستغيث يردد اسمها كأنّه الاسم الوحيد الذي يعرفه في الدنيا.

وتعودّت فدوى صوت الرجل المستغيث، ورحبت به، ولم يقلقها، ولم تكلّم أحداً عنه، واحتفظت به سرّاً يبهجها ويدفع إلى شفتيها الابتسام الغامض، ويجعلها تحسّ أنّها تمشي متوغلة في غابة ملأى

بالأخطار الخفيّة يغمرها الاطمئنان إلى نجاتها وسلامتها.

وانتظرت فدوى أن تلتقي يوماً الرجل صاحب الصوت المستغيث، ولم تأسف كثيراً عندما لم تعد تسمع صوته بعد زواجها، واعتقدت أنّه كفّ عن ترديد اسمها مستغيثاً بعد أن قنط أو عثر على من يبادر إلى إغاثته ولا يهمله أعواماً.

وفي إحدى الليالي، قالت فدوى لزوجها أحمد بصوت معاتب بينما هما يتأهبان للنوم: «هل لاحظت أنّك لم تكلمني طوال السهرة، ولم تنطق بكلمة واحدة ووجهك يكاد يلتصق بالتلفزيون؟».

قال أحمد: «كيف أكلمك وأنا ميت من التعب؟ كأنّك نسيت أني تركت البيت قبل شروق الشمس؟».

قالت فدوى: «قل لي كم سنة مرت على زواجنا؟».

قال أحمد: «سبع سنوات وأربعة أشهر وعشرة أيام».

قالت فدوى: «وكل سنة تتذكر متى تزوجنا وتحضر لي هدية».

قال أحمد: «لست قوي الذاكرة، ولكن كل ما له علاقة بك وبزواجنا لا يمكن أن أنساه».

فأغمضت فدوى عينيها، وقالت لأحمد: «ما دمت تدّعي أنّك قوي الذاكرة لا تنسى، فهيا خبّرني بلون عينيّ».

ففكر أحمد طويلاً ثم طلب إلى فدوى بصوت ساخط مرتبك أن تفتح عينيها حتى يتمكن من إخبارها بلون عينيها، ففتحت فدوى عينيها إلى أقصاهما، وقالت لأحمد متحدية: «هيّا انظر وخبّرني».

فقال أحمد بصوت متذمر وهو يحملق إلى شاشة التلفزيون: «لعنة الله على هذا التلفزيون.. كل برامجه الليلة مملة تزهق الروح ولا تطاق».

فضحكت فدوى، وقالت لأحمد بصوت ساخر: «لم يبق إلاّ أن تقترح عليَّ أن أغني لك وأرقص».

فقال أحمد: «لا لا.. لا يحمّل اللّه نفساً إلاّ وسعها، ولكنك إذا أردت تسليتي، فالأساليب كثيرة».

فتمطت فدوى، وقالت لأحمد: «ستسرني لو ذكرت واحداً منها».

قال أحمد: «لماذا لا تحكي لي حكاية من حكاياتك المسلية التي تحكيها كل ليلة لابننا قبل النوم؟».

فاغتاظت فدوى من طلبه، وقالت له بصوت لا يخفي استياءه: «ما يعجب به الصغير قد لا يعجب به الكبير».

قال أحمد لفدوى: «أنت أبرع من اختلق أعذاراً للتهرب، فلا تحاولي التهرب».

قالت فدوى: «إذن لا تلم إلاّ نفسك. سأحكي لك الآن حكاية لم أروها لابننا لأنّه صغير».

قال أحمد: «احكي، وستعجبني الحكاية حتماً ما دامت لا تصلح للصغار».

فلعقت فدوى شفتها العليا بلسانها، وقالت لأحمد: «في قديم الزمان، كان هناك ملك متزوج من ملكة تعوّدت كل ليلة أن تحكي لزوجها حكاية تسليه، وفي ليلة من الليالي ظلت الملكة صامتة، فطلب منها الملك أن تحكي له حكاية، فقالت له الملكة: لم يبقَ لديَّ إلاّ حكاية واحدة هي حكاية التفاحة، فهل أحكيها لك؟».

قال الملك: «هيا احكيها، فأنا أحب التفاح وكل ما يشبه التفاح».

قالت الملكة: «سأحكي لك حكاية التفاحة سواء أكنت تحب التفاح أم تبغضه».

فنظر الملك إلى الملكة مغتاظاً مستغرباً، فقالت له الملكة: «سأحكي لك حكاية التفاحة سواء أغضبت أم فرحت، وسأحكي لك حكاية التفاحة سواء أغمضت عينيك أم فتحتهما، وسأحكي لك حكاية التفاحة سواء وضعت يدك على أذنيك أم لم تضعهما، وسأحكي لك حكاية التفاحة سواء ابتسمت أم عبست..».

فصاح أحمد بفدوى: «وما حكاية هذه التفاحة؟».

قالت فدوى: «إذا سألت عن حكاية التفاحة أو لم تسأل فسأحكي لك حكاية التفاحة».

قال أحمد مهدداً: «إذا لم تحكي حكاية التفاحة فوراً، تركت البيت حالاً وأكملت السهرة في الكباريه».

قالت فدوى: «سأحكي لك حكاية التفاحة سواء سهرت في الكباريه أم في المسجد».

قال أحمد بصوت نافد الصبر: «هيّا احكي الحكاية. بلا غلاظة».

فقالت فدوى: «سأحكي لك حكاية التفاحة سواء طلبتها أم لم تطلبها وسأحكي لك حكاية التفاحة سواء ارتديت ثيابك أم لم ترتدها».

ورأت فدوى زوجها يرتدي ثيابه بحنق ويغادر البيت غاضباً من دون أن يتاح لها أن تحكي له حكاية التفاحة، وانتظرت عودته، ولكنه لم يرجع، فاستسلمت للنوم حزينة لترى في أثناء نومها أنها تلميذة صغيرة ضربتها زميلاتها في المدرسة، فتعود إلى البيت باكية، فتحضنها أمها، وتعدها بأن تثأر لها وتضرب زميلاتها، وتربت بيدها ظهرها بحركة رتيبة، فتكف عن البكاء، وترى في أثناء نومها رجالاً عراة مخضبين بالدماء، يتضاربون مطلقين الصرخات الوحشية، فترتعب وتغمض عينيها، وتنتظر أن يوقظها

من نومها رجل ما إن تراه حتى يتحوّل دمها ناراً وتحس أنه هو الذي كان يردد اسمها مستغيثاً، وتلمسه بأصابع نهمة لتكتشف أنّه أقلّ من امرأة.

٣٦

الهاربة

هربت نجاة الحرابي من بيت أهلها، وتركت لجدتها العجوز رسالة تبيّن فيها أسباب هربها، فكلّ ما لديها من صبر قد نفد، ولم تعد تطيق احتمال المزيد من الظلم، فأبوها يضربها باستمرار، وأمّها تسجنها في البيت وترغمها على تنظيفه ليل نهار، وأخوتها يتمادون في الهزء بها.. ولما اطلعت الجدة على الرسالة استغربت ودهشت وتحيّرت واكتأبت، فحفيدتها لا أخوة لها، وأبواها ماتا وهي طفلة تحبو، وكانت تتشهى دائماً أبا فظاً متجهماً وأماً صارمة كثيرة الصياح والأنين وأخوة قساة مرحين طائشين لا يفرقون بين السحابة العقيم والسحابة الممطرة.

٣٧

الرقص الشرقي

وقفت رزان السكري في غرفتها أمام المرآة الطويلة، ونثرت شعرها الأسود على كتفيها، وشرعت ترقص على أنغام الموسيقى المنسابة من المذياع مقلدةً الراقصات المحترفات، ففقدت حيطان الغرفة وقارها، وشهقت معجبة بهذا الجسد الفتيّ الشهي، وتمنت لو لم تكن من إسمنت.

ونظرت رزان إلى المرآة بينما هي ترقص، فرأت فيها أباها حانقاً مشمئزاً مستنكراً، ولم ترَ شعراً أسود طويلاً وصبية بيضاء في مقتبل العمر، فتوقفت عن الرقص، وهرولت إلى غرفة الجلوس، فوجدت أباها مستغرقاً في قراءة كتاب عتيق الورق، فحدقت إليه مفتوحة الفم مدهوشة من قدرته على الوجود في مكانين مختلفين في وقت واحد، وازدادت دهشتها وامتزجت بحزن عميق يوم انتحر أخوها شنقاً قبل أن يكمل سنته العاشرة، فاحتفظ أبوها بالحبل المستخدم، وأقسم بصوت مختنق بأنّه سيشنق به من كان سبباً في هلاك ابنه، ولم ينس قسمه، ومات مشنوقاً بالحبل نفسه.

٣٨

المفاجأة

أنبأ الأطباء مريضهم نور الدين الطحّان أنّه مصاب بداء لا شفاء منه، ولن يعيش أكثر من ستة أشهر، فاستقبل النبأ كأنّ المريض رجل آخر يجهله، وقال بصوت بارد إنّه سيفعل في الأشهر المتبقيّة له ما كان طوال حياته يحلم به ولا يجرؤ على فعله، فتوقع أهله وأصدقاؤه أشهراً تحفل بالمفاجآت المثيرة، ولكنّه استمر في حياته العادية: لم يبع بيته أو يغيّره، ولم يطلق زوجته الدميمة السليطة اللسان، ولم يستقل من عمله ويقذف كتاب الاستقالة بازدراء في وجه رئيسه الذي كان يتفنن في ابتكار أساليب جديدة للإذلال، ولم ينفق ما ورثه عن أبيه من مال، واستمر في حياته العادية حتّى وافاه الموت بعد تسع سنين وشهرين وثلاثة أيام.

٣٩

ها هو ذا الحصان يطير

اقتاد الرجل المرأة إلى حقل ليس فيه سوى شجر وعشب وحصان أسود هزيل يرعى، وقال لها: «هنا لن يرانا أحد».

والتصق بها، وحاول فمه أن يأكل شفتيها، فأحست بالخوف، وطلب لحمها لحماً آخر قاسياً حاراً خشناً مبتلاً بالعرق الغزير، ولكنها أبعدت الرجل عنها بحركة عدائية، وطالبته بالامتناع عن ملاحقتها والتحرش بها، وأشارت إلى الحصان الهزيل الذي كان يرعى في الحقل، وقالت للرجل بصوت متهدج ساخر إنها قد توافق على أن تصبح زوجته حين يطير هذا الحصان، ففوجىء الرجل بما سمع، ونظر إلى الحصان بحنق، ثم قال للمرأة بصوت مملوء بالدهشة: «انظري إلى الحصان. كأنّه يستعد للطيران. انظري إليه.. ها هو يطير».

ونظرت المرأة إلى الحصان، فرأته يرتفع عن الأرض، ويشرع في الطيران، فاضطجعت على العشب، ورأت ثانية الحصان الأسود

يحلق فوقها في سماء زرقاء، فتنهدت بارتياح، وفارقها خوفها واضطرابها، وطوقت خصر الرجل بذراعين اجتاحتهما قوة مباغتة.

٤٠

عفاف

كانت عفاف تعلم أنّها امرأة جميلة يحبها الرجال ولا تحبها النساء ويحذرن منها كأنّها مزيج من حية تسعى وطاووس يتبختر، وتعلم أيضاً أن كل زميلاتها في العمل اللواتي يتظاهرن بصداقتها يبغضنها ويتمنين لها أبشع مصير بعد أن توثقت علاقتها بوزيرها وشاع خبرها، وغدت الموضوع المفضل لهمسات النمامين والنمامات، ولم تتضايق عفاف من ذيوع الخبر، فالوزير رجل وسيم، جذاب، سخي، رقيق الطباع، ويتقن الكلام الحلو المستساغ للنساء، وذو نفوذ وسطوة ومهابة، ويحظى بالاحترام أينما كان، ولكنها كانت في الوقت نفسه تخشى أن يبلغ الخبر مسامع زوجها عفيف الذي كان صعباً قاسياً متكبراً عنيداً مشاكساً عدوانياً، ولن يتردد في تطليقها وإهانتها أفظع الإهانات وتخريب كل ما بنته طوال سنين، ولو تحققت أروع معجزة، فلن يكتفي بأقلّ من استقالتها من عملها والعيش في البيت خادمة بغير أجرة.

وحاولت عفاف جهدها أن تتأهب لمقدم ذلك اليوم الأغبر، وبدأت

تنظر إلى كل يوم يمرّ بها على أنّه مجرد خطوة تدنيها من هاوية سحيقة لا قرار لها، وحدث ما كانت تتوقعه وترتعب منه، فعندما كانت تتغدى مع زوجها لاحظت أنه دائم النظر إليها، ونظراته خليط من اللوم والعداء والتعنيف والعتاب، فتجاهلتها، ولكنه استمر ينظر إليها النظرات ذاتها حتى اضطرت إلى أن تقول له متسائلة: «ما بك تنظر إليَّ كأنّك تراني أول مرة؟».

قال عفيف: «صدقت».

قالت عفاف: «وكأنّك تنظر إليَّ كأنّي اقترفت ذنباً».

فقال عفيف بسخرية: «أعوذ باللّه! أنت ملاك لا ينقصك إلاّ جناحان».

فقالت له خافقة القلب مطأطئة الرأس متسائلة: «ماذا تقصد؟».

فتعالى صوت عفيف معاتباً موبخاً: «أنسيت الخبز والملح الذي بيننا؟ أنسيت بسرعة عشرة عمر؟ ألا تستحين أن أكون آخر من يعلم بأنّك المدللة لدى وزيرك، وكلمتك عنده لا تصير كلمتين؟».

قالت عفاف بصوت خافت ودمها يوشك أن يتجمد في عروقها: «مجرد شائعات مغرضة لا تصدقها».

قال عفيف: «أنا أعرفك وأعرف براعتك في التهرب مما لا تريدين فعله، فلماذا لا تقولين بصراحة إنّك لا تريدين أن تخدمي زوجك المسكين؟».

قالت عفاف متسائلة بدهشة: «عن أية خدمة تتحدث؟».

قال عفيف: «لديَّ معاملة نائمة منذ أشهر في وزارة الاقتصاد، ووزيرك هو أحسن صديق لوزير الاقتصاد، وكلمة واحدة منه تنهي المعاملة».

فوعدت عفاف أنها ستكلّم وزيرها غداً، ولن تترك وسيلة إلاّ وستستخدمها لإنهاء المعاملة، فقال عفيف: «ولديَّ معاملة أخرى مهمة جداً نائمة عند وزير التموين، ووزيرك ليس بصديقه. ليتك تستطيعين التعرف إلى وزير التموين أو إلى صديقه وزير الداخلية!».

فوعدت عفاف زوجها أنّها ستحاول أن تعرف كل الوزراء كما تعرف وزيرها، فابتسم عفيف، وعاد إلى تناول طعام غدائه بشهية مغدقاً المدائح على من طهاه.

٤١

الوحش

تلفنت هدى لصديقتها نازك الساكنة في بيت غير بعيد عن بيتها، وألحت عليها أن تزورها حالاً لأن روحها توشك أن تزهق بسبب زوجها وتصرفاته التي لا تطاق، فنصحتها نازك بالهدوء واعدة بالمجيء إليها بسرعة، ولم تحنث بوعدها، وجاءت بعد دقائق، وما إن قعدت في غرفة الجلوس حتى قالت لهدى: «هيا خبريني بما صار اليوم بينك وبين زوجك».

قالت هدى: «لم يحدث أي جديد، ولكني مللت هذه العيشة المشحّرة، وأفكر جدياً في طلب الطلاق».

قالت نازك: «لا لا يا هدى. كل شيء إلاّ الطلاق».

قالت هدى: «صبرت ظانة أنّه سيتبدل ويعقل، ولكن الماء ظل ماء».

قالت نازك: «صحيح أن المظاهر تخدع، كنت أظن أنه مجرد زوج وسيم مؤدب مهذب».

قالت هدى مستنكرة: «عن أي تهذيب تحكين؟ هذا المهذب المؤدب لا يحلل ولا يحرم، وكلما رأى أنثى سال لعابه حتى لو

كانت ذبابة. وإذا ابتسمت له امرأة مصادفة اعتقد أنها متيمة بهواه وستنتحر إذا لم يسارع إلى حملها إلى فراشه».

وتنبهت هدى إلى أنّ صديقتها تبتسم ابتسامة ذات مغزى، فقالت لها: «أنا الخبيرة بك وأعرف متى تبتسمين مثل هذه الابتسامات، فماذا تقصدين؟».

قالت نازك: «بصراحة يا هدى .. الرجل حين يخرج من بيته شَبِعاً من النساء لا يقوى على البصق على أجمل امرأة في العالم».

قالت هدى: «وبصراحة يا نازك .. لا شيء يشغل هذا الوحش سوى السرير في الصباح والظهر والمساء والليل والفجر، وما يريده غير طبيعي ولا تحتمله امرأة وأوشك أن أتلف».

فقالت نازك: «الحمد للّه الذي منحني زوجاً ناعماً رقيقاً لا يتحرش بي إلاّ بعد استئذاني قبل أسابيع والحصول على موافقتي الخطية».

ونددت نازك مطولاً بالرجال الذين يشبهون زوج صديقتها، وأرجعت السبب إلى ضعف خطير في شخصياتهم، ولكنها عزمت خفية على أن تحاول رؤية الوحش في أقرب فرصة لتبتسم له ابتسامة من توشك أن تموت فوراً إذا لم يختطفها ويغتصبها.

٤٢

الضاحكة النائحة

بلغت شلبية الثلاثين من عمرها من دون أن تتزوج رجلاً من رجال حارتها الذين سحروا بها وحلموا بامتلاك تلك المرأة الغامضة الجذابة القوية المرحة، وفضلت العيش وحيدة تعمل في مهنة تتقنها، تغني وترقص وتزغرد في الأعراس وتبكي وتولول في المآتم لقاء أجر، وتنال أغلى الأجور ولا ينافسها منافس، فكل عرس لا تشارك فيه باهت، كاذب الفرح، وكل مأتم لا تحضره تظل عيون أهل الميت وأصدقائه محتفظة بكثير من دموعها، وقد دعيت ذات يوم إلى مأتم أقيم مساء في بيت سامح العوام لقاء أجرة متفق عليها بعد مساومات، وحضرت المأتم، فإذا هي تغني وترقص وتزغرد وتروي طرائف تضحك الأموات، فطردها أهل المتوفى غاضبين من دون أن يعطوها أية أجرة، وحضرت في الليلة نفسها عرساً في بيت فؤاد اللمام، فإذا هي تبكي وتولول وتنوح وتلطم خديها وتوشك أن تمزق ثيابها، فأرغمت على مغادرة العرس، ولم تُعط الأجرة المحددة، وذاع في حارة قويق خبر ما فعلته شلبية في العرس والمأتم، فقوبل بالاستهجان، ولم يعد أحد يطلبها لحضور عرس أو مأتم، ولم تحاول

شلبية في أي يوم الدفاع عن نفسها وتأويل ما حدث، وأبت الاعتراف بأنّها لم تعد تميّز بين المآتم والأعراس، ولكنها صارت فجأة لا تنهض عن سجادة الصلاة، واشتهرت بقدرة جديدة غير معروفة خارقة جعلتها مقصداً لكثيرين، فكل ضعيف يعجز عن التغلب على خصم أقوى منه، يلجأ إليها مستغيثاً بقواها الخفية القادرة على إغراق الخصم في بحار من الشقاء لا منجى منها، وزارها سراً في أحد الأيام رجل أشيب يطحنه الهم والغم، وقال لها إنه هو نجيب البقار نفسه المعروف جداً في حارتها بغناه وحسبه ونسبه، ورجاها أن توافق على أن تثأر له من زوجته التي تتفنن في ابتكار الوسائل لإذلاله وإهانته يومياً، فسألته متعجبة: «ولماذا لا تطلقها وتستريح؟».

فأخبرها أنّه ذو ثروة طائلة خشي عليها إبان نزاعاته التجارية، فسجل كل ما يملك باسم زوجته التي يثق بها ثقة عمياء، ولكنها باغتته بتبدلها من قطة تموء إلى ذئب يعوي، وباتت تعامله كأنّه قشرة موز لا نفع فيها ولا تحتاج إليها، وتضطهده لإجباره على تطليقها، فقالت له شلبية: «زوجتك تستحق الموت، ولا يكفيها أن تتعذب».

فحدق نجيب البقار إليها مذهولاً، وهتف بإعجاب: «سبحان من أنطقك بالحكمة! زوجتي فعلاً تستحق الموت، ولو ماتت لعادت إلي ثروتي واسترحت».

فسألته شلبية بصوت بارد حذر: «وماذا ستعطي لو ماتت؟».

فأجاب نجيب البقار توّاً: «سأعطي ما فوقي وما تحتي».

قالت شلبية: «ستخصص لي فقط راتباً شهرياً معقولاً مدى الحياة

يكفيني ولا يضطرني إلى الخروج من البيت ومقابلة أناس كالزبالة، أما زوجتك، فسأصلي وأدعو عليها بأن تموت بعد أيام موتاً طبيعياً مفاجئاً».

وبعد أيام قليلة، هرع نجيب البقار إلى شلبية مرتدياً ثياب الحداد، وحاول أن يلثم يديها متباركاً شاكراً ممتناً، فتمتمت قائلة له بخجل إنها تساعد فقط المحتاج إلى مساعدة، ولكنها علمت فيما بعد أنه كان يخدعها، فزوجته كانت رقيقة وديعة تخجل من ظلها وتبكي إذا رأت عصفوراً بردانا، وهو الذي خطط بمكر للتخلص منها والاستيلاء على ما ورثته من أبويها من بيوت ودكاكين ومزارع كثيرة.. وما فعله نجيب البقار أغضب شلبية، ودفعها إلى أن تطرد كل زائر يقصدها، وظلت أياماً لا تأكل ولا تتكلم، عادت بعدها إلى مهنتها القديمة تولول في الأعراس وتزغرد في الجنازات من غير أن يدعوها أحد، ولا تطالب بأيّ أجر، ولا تبالي بالصغار الذين يلاحقونها مستهزئين أينما مشت في الحارة.

٤٣

الأجر

سار نصوح الفاني في الحارة بخطى متباطئة مهاباً وقوراً، يهرع الناس إليه، ويتبارون في تقبيل يده بخشوع، فيتمتم بصوت متهدج داعياً لهم بالتوفيق والرزق الكثير والنسل الصالح، وعندما وصل إلى بيته، وجد زوجته حسيبة منهمكة في قراءة مجلة نسائية عابسة الوجه مشمئزة كأن قمامة تتناثر حولها، ولم تستقبله بكلمة تحية أو نظرة ترحيب، ولعن سراً ساعة تزوج شابة جميلة وصغيرة السن.

وما إن جلس بجوارها على الأريكة حتّى أعطته حسيبة أوراق دعوى لصديقتها رحاب، وطلبت إليه أن يطّلع عليها ويقول لها رأيه بوصفه قاضياً، فتصفح الأوراق بسرعة، وقال لها إن الدعوى خاسرة، فقالت له إنّها تحبّ صديقتها رحاب وتريد خدمتها بأيّة وسيلة، فقال لها إنّه يحبّ أيضاً صديقتها رحاب ويريد خدمتها بكل الوسائل، فهي حورية هاربة من الجنة، ونظرة منها تحيي الميت، وتستحق كل خير، ولكن دعواها خاسرة، ولن تنجح إلاّ إذا تغيّرت بعض المعلومات الواردة في الأوراق، فقدمت إليه حسيبة ممحاة

وقلماً، وقالت له وهي تبتسم ابتسامة ذات مغزى: «هيّا اعمل، وأنت تعلم أنّي ورحاب لا نضيّع أجر كلّ من أحسن عملاً».

فسألها عن أجره، فأدنت فما من أذنه وهمست تخبره بالأجر، فأمسك نصوح لحيته بأصابع يده اليمنى، وداعب شعرها قائلاً لحسيبة: «ذاك واللّه أجر يُبتهى به، ووعد الحرّ دين».

وبادر إلى أخذ الممحاة والقلم من يديها، وانكب على تزوير أوراق الدعوى تزويراً متقناً حتى أنجزها، وأعطاها لزوجته متفاخراً وواثقاً بأنّ الدعوى باتت رابحة لا محالة، فابتسمت ابتسامتها الماكرة، ونصحته بحشد قواه والتأهب للقاء صديقتها في يوم قريب.

٤٤

الثوب العتيق

أقدم رجل مجهول على اختطاف ليلى ابنة مؤنس العلام في الليلة التي ستتزوج فيها محمود الخال، وأعادها بعد ثلاثة أيام منهكة كأنها لم تنم لحظة طوال مدة اختطافها، وكان محمود الخال يحب ليلى حباً ذاع صيته، فأقسم أنّه سيقتل مختطفها ويشرب من دمه، ولكن ما أدلت به ليلى من معلومات عنه لم يرشد إليه، وظل مجهولاً تستقصى أخباره.

وتزوج محمود الخال ليلى بعد أن وافق أهلها على خفض مهرها بعد مساومات مضنية دامت أشهراً تغلبت في ختامها حجة الوسطاء المعترفة بالفوارق بين ثمن الثوب المستخدم وبين ثمن الثوب الجديد، فحسده كل أصدقائه لأنه محظوظ نال كل ما كان يحلم به ولم يدفع إلاّ أقل من نصف السعر المطلوب.

٤٥

الجائحة

تراكضت دلال في باحة البيت متذمرة من مللها، وهرعت نحو الباب الخارجي، فصاحت بها أمها محذرة من أن اللعب في الحارة للصبيان ولا يصلح لبنت مثلها عمرها أقل من سبع سنين، فلم تهتم دلال بالتحذير، وفتحت الباب، وهمّت بالخروج، فصاحت بها أمها بلهجة متوعدة: «ستندمين لأنّي سأشكوك لأبيك».

فابتسمت دلال مستخفة، وقالت لأمها: «أبي مات، فماذا يستطيع أن يفعل؟».

قالت الأم بصوت جاد: «سيغضب عليك ويزورك في نومك كل ليلة ويقول لك إنه لا يحبك».

قالت دلال: «أنت غلطانة. أبي يحبني وسيحبني أكثر وسيكرهك حين أخبره بما تفعلين كل ليلة مع جارنا اللحام».

فرفعت الأم وجهها متطلعة إلى السماء، وقالت بصوت ضارع غاضب: «اللّه لا يكبرك».

فلم يُستجب دعاؤها، وكبرت دلال، وصارت فتاة جميلة يطوقها

المعجبون بها، ولم تخجل دلال أو تضطرب عندما أبلغها رجال الشرطة وهم يكبتون ضحكاتهم محرجين أن المدعو صلاح المحشوم القاطن في بيت قريب من بيتها قد اشتكى ضدها مدّعياً أنها اغتصبته، وبوغتوا بها تقرّ بفعلتها ولا تنكر، وقالت إنه مللها، فقد كان يكتفي دائماً بمعانقتها وتقبيلها والالتصاق بها، فازدرته، وعلمته أن البداية لها نهاية لا مفر منها، وقالت أيضاً إنها تعرف أنّ القوانين ترغمها على الاختيار بين الزواج به وإصلاح غلطتها وبين السجن، وهي لا تحب السجون، وتخافها ولا تستطيع العيش فيها، ولن تتهرب مما يتوجب عليها، وتزوجت دلال وصلاح في حفل عائلي اقتصر على الأهل.

وفي الليلة الأولى لزواجها، لم تنم دلال إلاّ عندما كان المؤذن يصلي داعياً إلى صلاة الفجر، ورأت في نومها أباها آسفاً معاتباً حانقاً، وأقسم لها أنه لم يحبها يوماً، فانتحبت حتى بللت الدموع وجهها، وأفاقت من نومها لتجد زوجها لصقها غارقاً في النوم كرضيع أطبقت شفتاه على ثدي أمه، وحرصت على ألا تبدر منها أية حركة خشية أن يصحو، وعادت إلى النوم، ورأت ثانية أباها وقد أعدّ محرقة هائلة، ويحمل نساء لا يقاومن، ويرميهن في نارها حتى تعب، ورمق ابنته بنظرة عتاب ولوم، فسارعت إلى مساعدته بحماسة ونشاط، فابتسم راضياً، واكتفى بالجلوس والتفرج وتدخين السيجارة تلو السيجارة، وشهقت دلال متعجبة عندما لمحت أمها بين النساء، وهرعت إليها مفتوحة الذراعين، وما إن لمستها الأم حتى عادت طفلة صغيرة رضيعة، فحملتها إلى البيت، ووضعتها في سريرها الصغير بجوار سريرها العريض الذي اضطجعت عليه، وتلفنت لأحد الرجال، وكلمته بتأنيب ونزق لتأخره عن موعده، فبكت دلال، فبادرت إلى إسكاتها بأن وضعت قرب رأسها دمية

لخروف صغير أبيض راح يثغو لها بصوت خافت عذب حتى نامت، وامتزج ثغاؤه في أذنيها بلهاث رجل وامرأة وصرير سرير يترجرج بحركات عنيفة رتيبة، وعندما أفاقت دلال من نومها صباحاً بكت جائعة، فحملتها أمها، وألصقت وجهها بصدرها، ودست في فمها حلمة ثدي طافح بالحليب، وقالت لرجل كان يرتدي ثيابه وهو يتمطى ويتثاءب إنّها تشتهي أن تعيش حتى ترى ابنتها صبية يشتهيها الرجال.

٤٦

انتظار امرأة

ولد فارس المواز بغير رأس، فبكت أمّه، وشهق الطبيب مذعوراً، والتصق أبوه بالحائط خجلاً، وتشتتت الممرضات في أروقة المستشفى.

ولم يمت فارس كما توقع الأطباء، وعاش حياة طويلة، لا يرى ولا يسمع ولا يتكلم ولا يتذمر ولا يشتغل، فحسده كثيرون من الناس، وقالوا عليه إنّه ربح أكثر مما خسر.

ولم يكفّ فارس عن انتظار امرأة تولد بغير رأس حتى يتلاقيا وينتجا نوعاً جديداً من البشر آملاً ألا يطول انتظاره.

٤٧

أوّل الهدايا

ارتدى معاوية الحنفي ثياب رجال الشرطة، ومشى على رصيف شارع يعجّ بالناس والسيارات والدراجات مبتسم الوجه، متمهل الخطى مستمتعاً بخوف العيون التي ترمقه خلسة، وتوارت ابتسامته حين تنبه إلى رجلين يتشاتمان بأصوات مرتفعة غاضبة، ووقف بالقرب منهما يرقب بنظرات صارمة ما يجري بينهما مستنكراً ألاّ يكترثا له، وكان أحدهما طويل القامة، بديناً، والآخر أسمر الوجه، نحيفاً، قصير الشعر كأنه خرج تواً من السجن. وسرعان ما تحوّل تشاتمهما ضرباً شرساً بالأيدي والأقدام، وكان الضرب الذي يوجهه الرجل البدين إلى خصمه أكثر وأقوى وأجدى، فأخرج الرجل الأسمر من جيبه موسى حلاقة، وأهوى بها على صدر الرجل البدين بحركة خاطفة من اليمين إلى اليسار، فتراجع الرجل البدين وهو يشهق برعب، واستند بظهره إلى حائط ألصق به العديد من إعلانات الوفاة، وأعول مخضّباً بالدم الأحمر، فسارع معاوية المرتدي ثياب رجال الشرطة إلى الإمساك بالرجل الأسمر بيدين قويتين، ولم يسمح له بالاقتراب من خصمه، ونصحه بالهدوء والصبر وكظم الغيظ، وأمر

الناس المحتشدين بالانصراف فوراً إلى أعمالهم، واقتاد الرجل الأسمر إلى مقهى قريب، وما إن جلسا إلى إحدى الطاولات حتى قال معاوية للرجل الأسمر متسائلاً: «أظن أنّك لا تمانع في فنجان قهوة يروّق دمك؟ كيف تحب قهوتك؟».

قال الرجل الأسمر: «بن كثير وسكر قليل».

فنادى معاوية الجرسون، وطلب إليه أن يحضر بسرعة فنجانين من القهوة، واحد بنه كثير وسكره قليل، وواحد سكره كثير ومغلي جيداً، ثم قدّم سيجارة إلى الرجل الأسمر قائلاً له: «دخن عليها تنجلي».

فأشعل الرجل الأسمر السيجارة، وراح ينفث دخانها من فمه وأنفه بعصبية، فسأله معاوية: «هل اختلفتما لأنّكما تنتميان إلى حزبين متعارضين؟».

قال الرجل الأسمر: «اختلفنا لأنّه اتهمني بأنّي على علاقة بزوجته، فلم أنكر، وأخبرته أنّي أراها فقط حين يكون في العمل، وليس لديها ما تفعله، فغار، وجنّ جنونه وهجم عليَّ».

فقال معاوية بصوت يقطر أسفاً: «لا حول ولا قوة إلاّ باللّه! الناس فقدت عقولها. كيف يحاول الاعتداء عليك وهو يعرف أنّك أقوى منه؟ هل زوجته تستحق هذا العزاء؟».

قال الرجل الأسمر: «لو كانت جميلة فقط لاستطعت بسهولة نسيانها، فالنساء الجميلات أكثر من الهمّ على القلب».

وأدنى فمه من أذن معاوية، وحدثه عن المرأة حديثاً هامساً جعل معاوية يلهث كأنه أصيب بعسر مباغت في التنفس ويقول متحسراً: «هكذا تكون النساء الحقيقيات ناراً يحاول الرجل إطفاءها بالماء، فإذا ماؤه بنزين طائرة».

وأتى الجرسون بفنجاني القهوة، فحاول الرجل الأسمر أن يدفع ثمنهما، ولكن معاوية منعه، ودفع ثمن القهوة، وعاتبه لنسيانه أنّه ضيف، والضيف يكرم، فارتشف الرجل الأسمر رشفة كبيرة من القهوة، وامتدحها متلمظاً، فقال له معاوية بصوت أربكته لهفة على الإمساك بالموسى الدامية: «لديّ طلب لا أدري كيف أطلبه».

قال الرجل الأسمر: «اطلب ما تشاء ولا داعي إلى الخجل».

قال معاوية: «أتبيعني موسى الحلاقة؟».

قال الرجل الأسمر متسائلاً بدهشة: «وكيف سأحلق ذقني كل صباح؟».

قال معاوية: «اشتر موسى غيرها».

قال الرجل الأسمر: «ولماذا لا تشتري أنت موسى جديدة؟».

فقال معاوية بصوت متأفف إن الموسى الجديدة كالمرأة الجميلة الباردة، فضحك الرجل الأسمر، وأخرج الموسى من جيبه، وقدمها إلى معاوية قائلاً إنها مجرد هدية، والهدية لا يدفع ثمنها، فأصر معاوية على أن يدفع ثمنها، ولكن الرجل الأسمر لم يتراجع عن موقفه، وربت بيده كتف معاوية قائلاً له بإعجاب صادق: «أنت تستحق أحسن هدية، وليت كل رجال الشرطة مثلك!».

فابتسم معاوية محمر الوجه مضطرباً، ودس في جيبه الموسى التي لا تزال مبللة بالدم وهو يتمتم بعبارات الشكر المتلعثمة، وغادر المقهى بعد أن كرر للرجل الأسمر نصحه بالهدوء والصبر وكظم الغيظ، وعاد إلى الشارع المزدحم بالناس والسيارات والدراجات يمشي متمهل الخطى محاولاً تحديد الثياب التي سيرتديها في اليوم التالي.

٤٨

المطربش

كان منصور الحاف رجلاً من دمشق يهابه أشرس الرجال، بحراً بلا موج، رابط الجأش في ساعات العسر وساعات اليسر غير أن خنجره كان سريع الغضب، يجرح بازدراء ولا يقتل، ولا مهرب لخصومه من برق نصله الهبّار وندامة متأخرة لا تنجي اللحم من التمزق، وكان منصور الحاف يرحب بالسجن كأنّه مصح في مصيف، ويردد يوم يخرج منه: «الأهبل وحده يفرح بالانتقال من سجن صغير إلى سجن كبير».

وقد أحب منصور الحاف زوجته نزيهة منذ أن لمحتها عيناه أول مرة، ولم يبح لها يوماً بكلمة واحدة تفصح عن ناره المخبأة، ولكنه لم يكن يخجل من الاعتراف علانية بأنّ كل ما تقوله نزيهة هو أوامر يسارع إلى إطاعتها بغير نقاش، ولو طلبت منه أن يحلق شاربيه لما تردد لحظة، ولكنه تبدل لحظة تكلمت مصادفة عن طربوشه، ونصحته بالتخلي عنه، واستحال رجلاً غريباً فظاً لا تعرفه، وقال لها باعتداد وتجهم إنّ الطرابيش خلقت زينة للرجال، فقالت له إنّ الطربوش ضيف قبيح سمج، فقال لها إنّه ولد مطربشاً وسيموت

مطربشاً، فقالت له إنّها لم تعد تطيق رؤية أي طربوش، فقال لها إن الطرابيش للرجال والملاءات للنساء والأغصان للشجر.

وفي أحد الأيام، قالت نزيهة لزوجها بصوت حانق، نافد الصبر: «إمّا أن تطلق الطربوش، وإمّا أن تطلقني».

فغضب منصور الحاف، ولكنه لم يشهر خنجراً، واكتفى بأن قال لزوجته عابس الوجه: «باب البيت عريض يخرج منه جمل، فهيا اركضي إلى أهلك. أنت طالق.. أنت طالق.. أنت طالق».

فبهتت نزيهة، وخرجت من البيت بغير ملاءة وهي تصيح بصوت متهدج مستغيث: «واغوراه!».

فحمل هواء فضولي واش صيحتها إلى أذني الجنرال الفرنسي هنري غورو، فبادر إلى نجدتها، وسار بجيوشه إلى دمشق، ودخلها غازياً منتصراً ملطخاً بدماء أبنائها القتلى على أرض ميسلون، فاستقبلته دمشق بحزن صقرٍ حُرم سماءه وسُجن في قفص، ولكن شرذمة من وجهائها وخدمهم حاولت أن تحمل سيارته على ظهورها تعبيراً عن ترحيبها الحار به، فمست يده المتوارية في قفاز جلدي أيدي مستقبليه المرتعشة فخراً، وسارع إلى زيارة قبر صلاح الدين الأيوبي، وقال له بتشف وشماتة: «ها قد عدنا».

فتكلم صلاح الدين الأيوبي، وقال للجنرال غورو بصوت أرض غسل مطرٌ مباغتٌ دموعها، واستعادت قدرتها على النطق بعد أن فقدتها طوال سنين: «ولكنكم ستعودون يوماً إلى بلادكم في توابيت سود».

فلم يبال الجنرال غورو بما قيل له، وطاف في شوارع دمشق مرح الوجه محاطاً بالكثير من حراسه اليقظين المتسلحين بآخر زيّ من أزياء المسدسات والبنادق الحديثة، والمتأهبين لإطلاق النار على أيّة

غيمة قد تعبر السماء من دون إذن مسبق، وكانت خطاه المتمهلة خطى من يرغب في الإقامة بها حتى موته، ولكنه تأفف من تلك الطرابيش الحمر الجاثمة على رؤوس الرجال، وعاد إلى مكتبه الرسمي، وأصدر أمراً صارماً مفعماً بالتهديد والوعيد، ينصّ على إلغاء الطرابيش وحظر صنعها، فجمعت الطرابيش كافة، وقذفت إلى مياه نهر بردى، واضطر الرجال إلى السير في الطرقات حاسري الرؤوس، متعثري الخطى كأنّهم حفاة، ولكن رأس منصور الحاف أصرّ على التشبث بطربوشه، فقبض عليه الجنود الفرنسيون، ووضعوه في السجن بغير تحقيق أو محاكمة.

وعندما ملّ الجنرال غورو مغازلة النساء والطعام الدسم واحتساء الخمور، وتاق إلى تسلية من نوع مختلف، أمر بإحضار الرجل الذي عصى أمره وظل محتفظاً بطربوشه، فاقتيد منصور الحاف مكبل اليدين إلى قاعة فسيحة الأرجاء ملأى بالضباط والجنود، وأُوقف قبالة الجنرال غورو الذي سأله بصوت نزق: «أتعرف ما هي عقوبة كل من يتجرأ على مخالفة أمر من أوامري؟».

فابتسم منصور الحاف، وأجاب بهدوء: «الموت فقط».

قال الجنرال غورو: «أنصحك ألا تحاول تمثيل دور الرجل الشجاع الذي يرحب بالموت، وهو تمثيل لن ينفعك الآن».

فحاول منصور الحاف أن يتكلم، ولكنه تلعثم إذ تخيّل الكرة الأرضية على شكل طربوش مقلوب يتساقط في جوفه الجنود من مختلف الجنسيات جثثاً باردة، وسمع الجنرال غورو يقول له بصوت متسائل ساخر: «ما بك خرست؟».

فقال منصور الحاف بصوت واثق خشن: «الموت في سبيل الطربوش شرف يتمناه كل رجل».

فتصنع الجنرال غورو أنّه يرى طربوشاً أول مرة في حياته، وحملق إليه بنظرات متفحصة ثم قال لمنصور الحاف: «أعجبني طربوشك، ويصلح هدية طريفة لزوجتي، بكم تبيعه؟ سأدفع لك عشر ليرات ذهبية.. عشرين.. مائة.. ألفاً.. ألفين..».

فقاطعه منصور الحاف قائلاً: «طربوشي ليس للبيع، ولن أبيعه ولو دفع لي مال هارون وقارون».

فغضب الجنرال غورو، وعاوده ملله، وأشار بسبابته إلى منصور الحاف صائحاً بجنوده: «أعدموه فوراً».

فصرخ منصور الحاف: «جيفة لا تعكر بحراً».

واقترب أحد الضباط من الجنرال غورو، وسأله بصوت خفيض: «وكيف نعدمه؟ أنشنقه أم نطلق الرصاص عليه؟».

فقال الجنرال غورو مخاطباً كل من كان حوله وبلهجة معلم يخاطب تلاميذه الصغار السذج: «اسمعوا.. لكل بلد خصائصه المتوارثة، وينبغي لنا بوصفنا من رسل الحضارة والمدنية أن نحترمها ولا نستهتر بها، ونحن الآن في بلاد يألف سكانها قطع الرؤوس».

فتراكض الجنود نحو منصور الحاف، وأرغموه على الركوع وإحناء رأسه، فصاح باستنكار: «ما هذا الظلم؟ ألن أسأل عن رغباتي الأخيرة؟».

فقال الجنرال غورو لأحد جنوده: «اسأله. لعله يريد أن يتوضأ».

قال الجندي لمنصور الحاف: «ما هي آخر رغباتك؟».

فضحك منصور الحاف، وقال: «أن أقتل على ركبتي زوجتي السابقة».

فسأله الجندي: «وأين تريد أن تدفن؟».

قال منصور الحاف: «لحمي لا يفرّق بين دود ودود».

وسأل الجنرال غورو منصور الحاف: «أتعرف لماذا ستموت الآن؟».

فشحب وجه منصور الحاف، ولكنه قال بصوت مطمئن واثق: «كل شيء هالك إلاّ وجهه..».

فتساءل الجنرال غورو: «وجه من؟ عمن تحكي؟».

قال منصور الحاف بصوت متبدل خاشع: «قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس، ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه».

فقال الجنرال غورو: «أأنت أعمى، نحن الأعلون، ولا أحد غيرنا يدمر أعداءه».

فقال منصور الحاف: «ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشداً، أزفت الآزفة ليس لها من دون اللّه كاشفة.. ليس لها من دون اللّه كاشفة».

وبدا منصور الحاف لعيني الجنرال غورو في تلك اللحظة وهو راكع على ركبتيه مخلوقاً بغيضاً محيّراً غبياً متكبراً مغروراً منفراً بليداً كأنّه لا يدرك ما يحدث حوله ويشترك في مبارزة يرحب بخاتمتها الفاجعة موقناً أنّها ليست نتيجة عقوبة أو هزيمة، ويردد كالحاكي ما سجل على أسطوانته من كلمات ليست بكلماته، فامتلأ الجنرال غورو بسخط جموح حاول التخلص منه بأن صاح بجنوده آمراً بصوت صارم: «أعدموه حالاً».

فأهوى سيف على رقبة منصور الحاف الجاثي على ركبتيه، وأطاح رأسه الذي تدحرج على الأرض كأنّه كرة ركلتها قدم طفل، ولكن الطربوش ظل ملتصقاً بالرأس، فأمر الجنرال غورو جنوده بنزعه عن

الرأس، فبادروا إلى إطاعة أمره، ولم تنجح كل الوسائل التي لجأوا إليها، وبدا الطربوش كأنّه جزء عنيد من الرأس، فطلب الجنرال غورو من جنوده إحراق الرأس وطربوشه، فبادروا إلى إشعال نار في ساحة من ساحات ثكنتهم تكفي لإحراق بقرة، ورموا فيها الرأس وطربوشه، ولما انطفأت النار وصارت رماداً، اختفى الرأس كأنّه لم يكن في يوم من الأيام حيّاً مفعماً بالنزوات مرفوعاً بفخر بين كتفين، ولكن طربوشه ظل أحمر سليماً لم يمسه أي سوء.

ولما أُعلم الجنرال غورو بما جرى، دهش واغتاظ وتحيّر، وأمر بحفظ الطربوش ريثما يرسل إلى مختبرات فرنسا العلمية لتحليله والكشف عن أسرار قوته الغامضة، ولكن الطربوش لم يقيض له أن يزور فرنسا إذ فُقد في ظروف غامضة، وشوهد يوماً على رأس رجل أسمر الجلد يطلق الأعيرة النارية من مسدسه على طائرة حربية كانت تحلق فوق دمشق وتقصف حيّاً من أحيائها، وشوهد ثانية على رأس رجل يصنع توابيت ويخبئها ليوم تتضاعف فيه أسعارها وتباع في السوق السوداء، وشوهد مرة ثالثة وقد تحوّل كرة مرحة حمراء يتقاذفها أطفال ضاحكون.

٤٩

التصغير الأوّل

كان عبد النبي الصبان رجلاً ضخماً، طويل القامة، عريض الكتفين، اعتُقل ليواجه اتهاماً بأنّه في كلّ لحظة يستنشق من الهواء أكثر من حصّته المقررة، فلم ينكر، وأقرّ بأنّ السبب يرجع إلى أنّه يملك رئتين كبيرتين هما وحدهما المسؤولتان، فأحيل توّاً إلى مستشفى ليغادره بعد أسابيع رجلاً جديداً ذا قامة قصيرة وصدر ضيّق ورئتين صغيرتين، يستهلك يومياً هواءً يقلّ عن الحصّة المخصصة له رسمياً.

٥٠

الطائر الأخضر

أحرق أبو حيان التوحيدي كل كلماته المكتوبة على الورق، ورمق رمادها بتشف متنهداً بارتياح، وأحسّ بالجوع، ولم يجد في بيته ما يصلح لأن يأكله، فمسح فمه بظهر يده، وحمد اللّه، ووقف أمام المرآة، فلم يعجب بما رأى، وتحوّل خروفاً تحوّل هراً تحوّل ذئباً تحوّل طائراً أخضر الريش، وخرج من النافذة المفتوحة، وطار فوق البيوت، وحطّ على غصن شجرة، وراقب بفضول رجلاً يجلس في حديقة قصره محاطاً بالكثير من ندمائه وخدمه وحراسه، وقد تطلع الرجل حوله، فرأى كل شيء جميلاً، فالعشب أخضر، والأشجار خضر مثقلة أغصانها بالثمر الناضج، والسماء زرقاء، والشمس مشرقة، والورد متنوع الأشكال والألوان، وتساءل الرجل بصوت مرتفع منتش: «هل هناك رجل في العالم أسعد مني؟».

فتنافس جميع الذين كانوا متحلقين حوله على التأكيد له أنّه أسعد رجل وأقوى رجل وأرحم رجل وأغنى رجل وأسخى رجل، فاغتاظ الطائر الأخضر، وتحوّل غراباً أسود، ونعب نعيباً أجش أزعج

الرجل، ودفعه إلى أن يأمر حراسه بطرد الغراب من حديقة قصره، فحاولوا وأخفقوا، وحنوا رؤوسهم خجلين بينما ظل الغراب يطير من شجرة إلى شجرة مواظباً على إطلاق نعيبه، فاضطر الرجل إلى ترك الحديقة غاضباً، فاغتبط الغراب، وطار مبتعداً عن الحديقة بأقصى سرعة حتى بلغ أحد الأزقة، وحطّ على سلك كهربائي، ونظر إلى أطفال يلعبون بمرح صاخبين، فزال عنه حنقه، وتحوّل عصفوراً مغرداً، فلم يتنبه الأطفال إليه، واستمروا يلعبون ضاحكين، فطار العصفور، ورأى في أثناء طيرانه معركة ضارية بين جيشين، فتحوّل طائرة حربية ألقت قنابلها فوق الجيشين، وأبادتهما أجمعين، وطارت الطائرة بعيداً عن أشلاء الجثث الممزقة، وحلقت فوق ساحة سجن يضرب حراسه سجناءهم بالعصي الغليظة، وقذفت بناءه بقنابلها وهدمته، فبادر السجناء تواً إلى بناء سجن جديد ذي أسوار شاهقة، ورأت الطائرة سفينة تمخر البحر، ويظن ركابها أنّ الطوفان يجتاح الأرض بكاملها، فتحوّلت الطائرة حمامة بيضاء طارت وعادت بعد حين إلى السفينة تحمل في منقارها غصناً أخضر يقطر دماً أو حبراً أحمر.

٥١

الساحر

أُوثقت يدا طفل في الخامسة من عمره خلف ظهره، وعُصبت عيناه الخضراوان بقطعة قماش قاتم، ووقف قبالته خمسة جنود وقفة استعداد متنكبين بنادقهم متأهبين لتنفيذ الجديد من أوامر ضابطهم المتوقعة.

وتعالى صوت ضابطهم آمراً، فسددوا بحركات سريعة فوهات بنادقهم نحو قلب الطفل، وأمرهم ضابطهم بإطلاق النار، واختلط صوت الضابط الصارم الآمر بضحكة ندت عن الطفل، وبلغت مسامع الجنود الخمسة، فتذكر الأول زوجته الجميلة حين تضحك، وتذكر الثاني سريره قرب نافذة مطلة على نهر، وتذكر الثالث شارعاً مشجراً يمشي فيه مثرثراً مع صديق، وتذكر الرابع يوم كان صغير السن يعلمه أبوه صيد السمك على شاطىء بحر، وتذكر الخامس أمه تكبر في السن فجأة يوم مرض.

وبادر الجنود الخمسة إلى إطاعة الأمر العسكري، وأطلقوا نيران بنادقهم على صدر ضابطهم الذي تهاوى أرضاً مثقوباً خمسة ثقوب دامية، وانتظروا غير آسفين أن تُطلق النار عليهم، ولكنهم ظلوا أحياء ومات كل آمر بإطلاق النار.

٥٢

قبر خاو

كان الجنرال رجلاً ذا رئتين ومعدة وأمعاء غليظة وأمعاء دقيقة وكبد وشرايين ملأى بالدم الأحمر، ولا يختلف عن غيره من الرجال إلاّ بكونه جنرالاً في جيش محارب في بلاد ليست بلاده، وكان الجنرال كثير الضجر من مهنته الخالية من الإثارة، ويحلم بأن يعمل يوماً في مزرعة لتربية البقر والغنم أو في مستشفى للمعوقين والمسنين، وكان الجنرال صارماً كثير الاكتئاب، لا يبتهج إلاّ حين يتخيل عصفوراً صغيراً يحاول الطيران ويخفق، ولا يبتهج إلاّ حين يتخيّل جنوده المطيعين لأوامره يحتلون القرى والمدن متنافسين على هدمها وقتل سكانها، ولا يبتهج إلاّ حين يتخيّل أنّه يزود جنوده بأسلحة قادرة على إبادة مئات الألوف في ثوان، فلا يحاولون استخدامها حتى لا يحرموا قتل أعدائهم ببطء وتشف، وابتهج في أحد الأيام ابتهاجاً مختلفاً حين تنبه إلى أن شعراً جديداً أسود بدأ ينبت في رأسه ويحل محلّ الشعر القليل الأشيب، وتباهى به دليلاً على الرجولة وعودة الشباب، وتزايد نمو شعر جسمه مغطياً الجلد بطبقة كثيفة خشنة، وتبدل شكل وجهه تدريجياً، وحاول في إحدى الليالي أن يستسلم

للنوم، فأخفق، وأحس بقوة غامضة تجتاح كل جسده، فقفز من سريره، وتمطى أمام المرآة وهو ينظر إليها ملياً، فرأى أنّه قد صار ضبعاً ذا مهابة مغطى بشعر كثيف، واستحالت أظفار يديه مخالب وأسنانه وأضراسه أنياباً، فاستمتع بتبدله، ودهمه جوع لا يقاوم، فانقض على عنق زوجته التي كانت نائمة، وقتلها قبل أن تصحو، ولكنه لم يستسغ لحمها المترهل القاسي، فتركها مشمئزاً، ووثب على ابنها الرضيع المبتسم إبان نومه، وأُعجب بلحمه الطازج الغض.

وكان أحد حراس الجنرال واقفاً خارج غرفة النوم مشدود القامة وإصبعه على زناد بندقيته تأهباً لأيّ حدث طارىء، فبوغت بضبع يخرج من الغرفة ملطخاً بالدماء، فبادر إلى إطلاق النار عليه، وأرداه قتيلاً، فتراكض بقية الحراس مضطربين متصايحين، وعثروا على بقايا الزوجة وابنها، ولم يعثروا على الجنرال، فساد اعتقاد بأنّ الضبع أكله بأكمله، ولم يترك منه ما يحتاج إلى قبر.

٥٣

الأجنحة السود

كان عمر ياسر طفلاً كثير الضحك بغير سبب، ولكنه ما إن كبر في السن حتى كفَّ عن الضحك وعاداه، ووجد نفسه في صباح أحد الأيام يستلقي على فراشه رجلاً هرماً، ويغمض عينيه غير مبالٍ بتحريض زوجته على الذهاب إلى العمل، فخرج من خزانة الثياب شرطي فظّ ذو جناحين أسودين، وقال لعمر بصوت صارم آمر: «هيا انهض.. ستتأخر عن عملك».

فقال عمر ياسر للشرطي: «عملت خمسين سنة من دون فائدة، ولن أعمل لا اليوم ولا غداً ولا في أيّ يوم».

قال الشرطي: «ولكنك إذا لم تعمل ويعمل غيرك، فسيتضاءل نتاج المعامل».

فقال عمر ياسر للشرطي متسائلاً بنزق: «أأنت شرطي أم أنّك وكيل من وكلاء أصحاب المعامل؟».

قال الشرطي: «إذا لم تعمل تجوع».

قال عمر ياسر: «سآكل التراب والخشب، وحين أشتهي اللحم سآكل زوجتي العجوز».

فقال الشرطي محذراً ومتوعداً: «إذا لم تشتغل فقدت مسوّغ استمرارك في الحياة، وحُكم عليك تواً بالموت المبكر».

فضحك عمر ياسر، وقال للشرطي ذي الجناحين الأسودين: «مجنون وأحمق وابن كلب كل من يتشبث بهذه الحياة المقرفة».

وأغمض عمر ياسر عينيه بإصرار، واسترخى في استلقائه مستسلماً لأصابع الشرطي الضاغطة على عنقه، ولما رأته زوجته مسجى بغير حراك، حملقت إليه مدهوشة، وقالت له بصوت امتزج فيه الحزن والفرح معاً: «الحمد لله يا ابن عمي لأنك ضحكت قبل موتك، وليتني أعرف السبب حتى أضحك مثلك».

وحاول عمر ياسر أن يلبي رجاءها، ولكن لم يتح لها أن تفهم ما قاله صوته المتحشرج، وعندما كان يدفن في المقبرة، حزن مشيعوه، ولكن زوجته التي تحبه كانت تبتسم خفية يجتاحها فرح ماكر غامض.

٥٤

النهر

أحب جابر الملاحي امرأة لم تكترث له وازدرته ورحبت بالزواج من شاب اشتهر بتزاحم الرجال عليه، فامتلأ جابر بالأسى والمرارة والهوان، وهجر بيته ناقماً، ولم يعد إليه إلاّ بعد عشر سنين قضاها في مدن نائية، فزاره رجال حارته مهنئين، وطلبوا منه أن يحدثهم عمّا رآه في تلك المدن الغريبة التي عاش فيها، فارتبك، وقال لهم إنّه تعبان، وسيحدثهم عنها في وقت آخر، وتصنّع بعد أسابيع أنّه لم يسمع ما طلبوا، وتحدث عن أمور أخرى، وقال بعد شهور إنه نسي ما رآه وما يتذكره لا يستحق الذكر، وأنكر بعد سنوات أنّه سافر وعاش بعيداً عن حارته، فصدّق رجال الحارة قوله، فهم كثيراً ما يتخيلون ما هو غير موجود وحدوث ما لم يحدث، وقد تخيّلوا أنّ جابر الملاحي هجر حارته وغاب عنها عشر سنين.

وتزوج جابر الملاحي فجأة امرأة أحبها بعد الزواج، ولم يعلم أنّها عاقر إلاّ عندما رغب في أن يصير أباً، ولكنه لم يطلقها أو يتزوج غيرها.

وكان جابر الملاحي يسكن في بيت ذي حديقة تحتوي ثلاث أشجار فاكهة، فابتدأ يُعنى بها في معظم أوقات فراغه، ويأبى أن يقطف من ثمارها، ويكتفي بمراقبتها وهي تزهر وتثمر وتنضج ثم تذبل وتجفّ وتتلف وتتساقط أرضاً، فيكتئب وزوجته في الخريف والشتاء ويفرحان في الربيع والصيف، ولكنهما فوجئا ذات صباح بأنّ كل فواكه الأشجار الثلاث سرقت، وكسّرت الأغصان بحقد كأنّ اللصوص المجهولين يثأرون من أشجار سبق لها أن هدمت بيوتهم، فحزنا حزن من فقد أولاده، وباع جابر بيته، وعاود الرحيل إلى المدن النائية وبرفقته زوجته العاقر.

٥٥

نهاية انتظار طال

مات مروان العلبي، وتحلق أبناؤه الثلاثة حول جسده الهامد مطأطئي الرؤوس، وذرفوا الدموع السخيّة، ولم تحاول أيديهم مسحها إذ كانت منهمكة في اقتسام كلّ ما كان يملكه أبوهم.

استولى الابن الأكبر على ثيابه الداخلية وحذائه، واستولى الابن الأوسط على قميصه وبنطاله وجواربه، واستولى الابن الأصغر على معطفه، فأغمض مروان العلبي عينيه مستحياً من عريه، وقال لأبنائه متسائلاً بصوت واهن متهدج: «من منكم سيرث ديوني؟».

فتبادل الأبناء الثلاثة النظرات المتعجبة، واتفقوا على أنّ ما سمعوه ليس سوى وهم، فالميْت لا يستطيع التكلم بعد موته.

٥٦

المطاردة

تثاءبت بهيجة متضجرة من زوجها حميد المستغرق في قراءة إحدى المجلات، وحاولت إغراءه بالتكلم معها، ولكنه رجاها أن تمهله حتى ينتهي من قراءة ما نشر عن راقصة معروفة اغتنت وتنوي هجر مهنتها، فقالت له بهيجة عابسة الوجه: «وأنا أيضاً سأرقص سنة أو سنتين ثم أتقاعد؟».

فتجهم وجه حميد، وهمّ بالرد عليها، ولكن ثمة ولاويل تعالت في تلك اللحظة من مكان ليس بالبعيد، فأفلتت أصابعه المجلة، ونهض واقفاً مصفرّ الوجه وهو يردد بصوت مرتعش: «يا ستار.. يا ستار..».

فضحكت بهيجة، وقالت له وهي تهمّ بمغادرة الغرفة: «لا تخف. هذه جارتنا تولول ابتهاجاً بنجاح زوجها في امتحانات الشهادة الابتدائية».

وعادت بهيجة بعد قليل لتقدم إلى حميد فنجاناً قائلة له: «هيا اشرب قهوتك بسرعة حتى لا تتأخر عن موعدك مع الطبيب».

قال حميد: «وأين القهوة؟ هذا حليب وليس بقهوة».

قالت بهيجة: «هذه قهوة».

قال حميد: «القهوة لونها أسود والحليب لونه أبيض».

قالت بهيجة: «أنت تتكلم كأنّك نائم. القهوة لونها أبيض والحليب لونه أسود».

فوضع حميد الفنجان بحركة نزقة على سطح الطاولة القصيرة القوائم، ونهض عن الأريكة، واقترب من النافذة المفتوحة على فضاء رحب، فرأى ثيراناً بيضاً تطير من غير أجنحة في سماء حمراء صافية، فصاح ببهيجة مدهوشاً: «تعالي بسرعة وانظري».

فالتصقت بهيجة بظهره، وسألته بصوت خفيض ماكر: «هل أدلك على ما هو أجمل وأظرف من هذه العصافير السخيفة وموجود في هذه الغرفة وتراه ولا تنتبه إليه؟».

وسمع حميد سعالاً خشناً آتياً من الغرفة المجاورة، فبهت، ونظر إلى بهيجة مستغرباً متسائلاً، فقالت له: «هذا جلال صاحبي الجديد تأخر في الليل وأشفقت عليه وسمحت له بالنوم».

فقال حميد لنفسه: أنا نائم، وكل ما أراه وأسمعه يحدث في منام. وأغمض عينيه، ولم يفتحهما إلاّ بعد أن زغردت الجارة احتفالاً بنجاح ابنها الكسول في امتحانات البكالوريا، واختفى الرجل الغريب من البيت وطارت الطيور في السماء وقدمت له بهيجة قهوته السوداء المرّة التي احتساها على عجل، وغادر بيته قاصداً عيادة الطبيب، ومشى في شارع عريض طويل تحتشد فيه نساء يذبحن أطفالهن وهنّ يرددن أغاني التنويم بأصوات مفعمة بالحنو وشبان مفتولو العضلات يذبحون آباءهم بسكاكين كبيرة صدئة ورجال يضربون زوجاتهم ضرباً يرغمهن على الولولة وجنود ينتزعون الأطفال الرضع المتشبثين بأثداء أمهاتهم، ويطوحون بهم

إلى الأرض، ويغتصبون الأمهات بحركة من يعتزم القتل، فالتصق حميد بأحد الجدران راغباً في التلاشي فيه، وأغمض عينيه، ولم يحاول فتحهما إلاّ عندما كان أحد الجنود يعصب عينيه بقطعة قماش سوداء ويأمره بعدم التحرك، وسمع حميد دويّ الرصاص، وسقط أرضاً مصاباً برصاصتين اخترقتا جبهته وقلبه، فهرول إلى بيته مذعوراً، وقال لبهيجة بصوت متهدج إنّه قد قتل ومات، فأسفت لأنّ بزته الجديدة الغالية الثمن قد تمزقت واحترقت وتلطخت بدمه الأسود، فكظم حميد غيظه، وقال لها بصوت هادىء إن دمه أحمر اللون وليس أسود، فقالت له إنّه لن يتخلى عن غروره حتى وهو ميت، ولامته لإضاعته موعده المنتظر مع الطبيب، ونصحته بأن يتحمل وحده متاعبه الصحية بصمت وبلا شكوى، فلم يجب بكلمة، وهرول عائداً إلى الشارع المغطى بالجثث، والتصقت جثته بالجثث الأخرى يغمرها اطمئنان لم تعرفه من قبل غير مبالية بالصيحة الصارمة الآمرة بالإعدام الثاني.

57

وعدها الرابع

التقى حمدان وريما أول مرة في مهرجان خطابي سياسي، وقد أحبها حمدان، واتهمها بعد فترة أنّها بلا قلب، فوعدته أن تحبه حين يصل الإنسان إلى القمر، ووصل الإنسان إلى القمر، ومشى على أرضه، فلم تنكث ريما بوعدها لحمدان، وأحبته، فلاحقها طالباً الزواج بها، فوعدته أن تتزوجه حين يصبح الاتحاد السوفياتي رأسمالياً، وصار الاتحاد السوفياتي رأسمالياً، فبرّت ريما بوعدها لحمدان وتزوجته، واعتبر نفسه أسعد رجل على وجه الأرض، ولكنها ضبطته بعد أشهر يتنهد مكتئباً، ونبهها إلى أنّ البيت بلا أبناء موحش لا يطاق، فوعدته أنّها ستنجب صبياً حين يهدم جدار برلين، وهدم جدار برلين وبيعت حجارته لهواة الآثار، فلم تخلف ريما وعدها لحمدان، وأنجبت صبياً يشبه أباه ولا يختلف عنه إلاّ في الشاربين، فلم يفرح حمدان سوى أيام قليلة، اشتكى بعدها لريما من جيوبه الفارغة والبطالة المتفشية وضآلة الرواتب، فوعدته أنّ أحواله ستتبدل عما قريب حين تصبح أميركا شيوعية، وصارت أميركا شيوعية تخفق في سماواتها الرايات الحمر، ولكن أحوال حمدان لم تتبدل، وظلت جيوبه فارغة والبطالة متفشية والرواتب ضئيلة.

٥٨

الوطن المفدى

كانت إحدى الأشجار قوية، كثيرة الأغصان، تقف ليل نهار في الحديقة الخلفية لأحد البيوت من دون أن تظفر بأيّة راحة، وزاد تعاقب الفصول قوتها، فغلظ جذعها، ونمت أغصانها، وارتفعت عالياً في الفضاء ممتدة إلى كل الاتجاهات، وبوغت أحدها بأن نموه أدناه من نافذة كبيرة من نوافذ البيت، فحسدته الأغصان الأخرى لأنه سيرى ما لن يتاح لها أن تراه.

وتعوّد الغصن أن يرقب ما يجري في داخل الغرفة، فيشهق متعجباً أو مذعوراً أو مدهوشاً أو متألماً أو متحسراً أو مستنكراً أو يئن أنين مريض يحتضر، ولكنه كان يرفض التكلم مع الأغصان الأخرى عما يراه بحجة أنّه مشغول بمتابعة ما يجري في داخل الغرفة ولا وقت لديه للثرثرة، ولما حاول في أحد الأيام أن يحدّث الأغصان ملخصاً ما رآه، عجز عن التكلم، وتنبهت الأغصان فجأة إلى أنّها كلها أغصان فتية نضرة مغطاة بالأوراق الخضر بينما هو غصن واهن ذابل جاف أجرد شاخ مبكراً، وما لبث أن يبس متوقفاً عن

مراقبة ما يجري في داخل البيت، وتهاوى أرضاً منفصلاً عن شجرته ليلة هبت ريح عاصفة، ولم يحاول أيّ غصن فيما بعد الاقتراب من نوافذ البيت.

٥٩

الحكاية الأخيرة

اتهم رواد المقهى الحكواتي ذا الشعر الأبيض والوجه الشاحب المتجعد والشاربين الكثين بأنّ كل ما لديه من حكايات بات معروفاً ومملاً يرهق الآذان والرؤوس، وطالبوه بحكايات مثيرة تسلي فعلاً، فلم يردّ الحكواتي بكلمة، واكتفى بالصمت المتكبر والابتسام الهازىء، وعندما خفّ ضجيجهم، تكلم بثقة، ووعدهم أن يروي لهم حكاية غريبة لم ترو من قبل، ستجعلهم ينامون كأنّهم لا يزالون أجنة في بطون أمهاتهم، فساد الصمت في المقهى، وحدق رواد المقهى إلى الحكواتي بنظرات فضولية مترقبة، وعندئذٍ ابتسم الحكواتي ثانية ابتسامته الهازئة، وابتدأ يروي حكايته الجديدة، فنام رواد المقهى، ونام أخ يهمّ بقتل أخيه، ونام سكان الكرة الأرضية، ونام الحكواتي، ونبت العشب على سطح الإسفلت، وبنت العصافير أعشاشها فوق صفيح السيارات، وباضت الحمائم على أجنحة الطائرات المجللة بالغبار، وتسكعت الغزلان والفيلة والنمور في الشوارع بخطوات متكاسلة.